سفينة غلوريا سكوت

مغامرات شيرلوك هولمز

سفينة غلوريا سكوت

تأليف

آرثر كونان دويل

ترجمة

محمد يحيى عبدالكريم

آرثر كونان دويل

ولد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في إسكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩م، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاما.

وكان من مدرسيه في الكلية الجراح الشهير الدكتور جوزيف بل، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢م حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جراحا وخبيرا في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطرته إلى العمل طبيبا على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلا فاتجه إلى الكتابة أملا في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضا من قصص المغامرات لمجلات الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلا، وفشلت

روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكر في أساليب الدكتور بل في التشخيص وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحدا من رجال التحري؛ وهكذا ولد شيرلوك هولمز في رواية (دراسة قرمزية) التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧م.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية!

وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

كانت إحدى هذه الحوادث تتعلق برجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلا عاد بعده إلى فندقه حيث أبدل ملابسه ثم اختفى.

وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حل المشكلة سريعا إذ قال: «سوف تجدون رجلكم في غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته.

إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمد، والحفل الذي كان فيه ينتمي في الساعة الحادية عشرة، ولما كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بد أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى إسكتلندا تغادر محطة كينغز كروس عند منتصف الليل».

وقد عثر على الرجل في إدنبرة فعلا!

كان آرثر كونان دويل رياضيا متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيبا مفوها ومحاضرا ناجحا ومحاورا بارعا، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.

وفي عام ١٩٠٠م تطوع الدكتور دويل في حرب البوير (في جنوب إفريقيا) وصار كبيرا للجراحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب منح وسام الفروسية ولقب (سير) تقديرا لخدماته. وقد أصدر بعد عودته إلى إنجلترا كتابا مهما عن هذه الحرب.

وتوفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠م بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة

آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاما على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.

***

شيرلوك هولمز وعالمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهر الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيرا من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرة مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بل الذي درسه في كلية الطب. كان الدكتور بل يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهرا فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضا. كان يقول لأحد المرضى مثلا: «أنت ضابط سرح من الجيش حديثا، وقد عدت لتوك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل». وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلا إن الرجل يبدو جنديا من هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة

يدل على أنه ترك الخدمة حديثا، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

(ولد) شيرلوك هولمز- في عالمه الخيالي- سنة ١٨٥٤م وحصل على شهادة جامعية لم يحددها دويل، ثم احترف مهنة (محقق خاص) منذ نحو سنة ١٨٧٨م، وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو (٢٢١ ب). وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (٢٢١ ب شارع بيكر) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رواية القصص الذي يقصها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو). وهو طبيب ولد نحو سنة ١٨٥٢م وتخرج طبيبا سنة ١٨٧٨م،

ثم انضم إلى الجيش سنة ١٨٨٠م وأمضى مدة خدمته في أفغانستان مع الجيش البريطاني، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد في أوائل سنة ١٨٨١م، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط. وقد تزوج الدكتور واطسون في أواخر سنة ١٨٨٦م، لكن دويل لم يشأ أن يعرفنا إلى زوجته ولم يذكر لنا اسمها.

في قصة (المشكلة الأخيرة) التي نشرت في نهاية عام ١٨٩٣م (قتل) دويل بطله شيرلوك هولمز، لكنه واجه احتجاجا عارما من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣م ليستأنف حل القضايا الغامضة.

***

قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩م، وهي قصة قصيرة عنوانها (إفادة السيد جفسون)، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت (دراسة قرمزية)، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧م فلم يكد يحس بها أحد، لكنها حققت نجاحا معتدلا في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، وهي رواية (علامة الأربعة) التي نشرت عام ١٨٩٠م فوطدت شخصية هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

وفي السنة التالية (١٨٩١م) بدأ نشر مجموعة (مغامرات شيرلوك هولمز) في حلقات شهرية في مجلة (ستراند)، بدءا بقصة (فضيحة في بوهيميا) التي ظهرت في عدد تموز (يوليو)، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية.

ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخ من بابه الواسع، حيث

صارت حديث المجتمع وشغل الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتي عشرة نشر آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢م.

ثم ظهرت سلسلة (ذكريات شيرلوك هولمز) التي نشرت في اثنتي عشرة حلقة أيضا صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢م، ويبدو أن دويل بدأ يمل عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك (قتله) في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرير عند شلالات رايشنباخ في سويسرا!

وقد نشرت هذه القصة (وعنوانها (المشكلة الأخيرة)) في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣م.

وثار جمهور دويل غضبا وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية.

ثم وافق أخيرا بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على (بعث) شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة (مغامرة المنزل الخالي) التي نشرت في

مجلة (ستراند) في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣م.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد؛ فقد تبين أنه لم يقتل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الخالي) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شق طريقة بعد ذلك إلى بلاد التبت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة.

وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة (ستراند) في بريطانيا ومجلة (كوليرز) في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشاقه المخلصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة (عودة شيرلوك هولمز) (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤م.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة رواية شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة (كلب عائلة باسكرفيل)، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١م إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢م، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدما صدرت سلسلة (الظهور الأخير) التي تضم سبع قصص نشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨م وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣م، ثم الراوية الطويلة الرابعة (وادي الرعب) (٩/ ١٩١٤م- ٥/ ١٩١٥م)، وهي أعظم روايات شيرلوك هولمز كما يقول النقاد. وأخيرا سلسلة (قضايا شيرلوك هولمز) (١٠/ ١٩٢١م- ٤/ ١٩٢٧م) التي نشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماما من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألف كتبا كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومانسية ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب والدراسات الغير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتبا غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من المؤلفات نحو مئة وستين، منها ستون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالم اسمه البروفيسور تشالنجر، وأشهر هذه الروايات هي (العالم المفقود)، ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر

مسرحيات، وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتابا وكتيبا في السؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سماه (ذكريات ومغامرات).

***

رسام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عدد من الرسامين، لكن أشهرهم وعظمهم- بلا خوف- كان الرسام الإنجليزي سدني باجيت الذي صاحب روايات هولمز وقصصه منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بلور صورة شيرلوك هولمز وطبعها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم المجلة لم تسع ابتداء خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصتي (جزيرة الكنز) و(روبنسون كروزو)، لكن خطأ في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الست الأولى التي نشرتها مجلة (ستراند) في النصف الثاني من عام ١٨٩١م، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص

وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨م، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسما زينت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة (ستراند) برسامين آخرين، فشارك في رسم السلسة الجديدة (الظهور الأخير) كل من ولتر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وجلبرت هاليدي وأليك بول وجوزف سمبسون. أما السلسلة الأخيرة- وهي (قضايا شيرلوك هولمز)- فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم أ. جلبرت وهاوارد إلكوك وفرانك وايلز.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة (ستراند)، أما في أمريكا فقد استعانت مجلة (كويرز) بعدد من الرسامين أشهرهم فردريك دوز ستيل، ومنهم و ه وجوزيف فريدرتش ورتشارد غوتشمت.

***

سفينة غلوريا سكوت

قال صديقي شيرلوك هولمز عندما جلسنا في أحد ليالي الشتاء بجوار المدفأة:

عندي هنا- يا واطسون- بعض الأوراق التي أعتقد حقا أنها تستحق أن تدرسها، وهي المستندات المتعلقة بالقضية الغريبة (سفينة غلوريا سكوت) ومعها الرسالة التي قضت على قاضي الصلح تريفور فمات رعبا عندما قرأها.

بعد ذلك أخرج هولمز من درجه لفة أسطوانية صغيرة متسخة وفك عنها الرباط ليعطيني رسالة صغيرة مكتوبة بخط مستعجل في نصف ورقة من الورق الرمادي، وكان مكتوبا فيها:

(عملية توريد طيور اللعبة إلى مدينة لندن انتهت. نعتقد أن الحارس هدسون تلقى الأوامر وأنه كشف طلبات الورق وكشف كل طلبات الطيور وأي شيء.

لتحافظ على الطيور اهرب بها فهذا طريق للنجاة).

توقفت عن قراءة الرسالة المبهمة ورفعت بصري فرأيت هولمز يضحك من التعبير المرتسم على وجهي.

قال:

تبدو محتارا قليلا.

لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن لمثل هذه الرسالة أن تثير الرعب. إنها تبدو لي مثيرة للعجب أكثر من أي شيء آخر.

ربما. وبالرغم من ذلك تبقى حقيقة أن قارئها، وهو رجل لطيف وكبير في السن ونشيط، قد خر صريعا بسببها كما لو كانت سلاحا فتاكا.

قلت:

إنك تثير فضولي، ولكن لماذا قلت الآن إن هناك أسبابا خاصة تدفعني إلى دراسة هذه القضية بالذات؟

لأنها كانت القضية الأولى التي عملت فيها على الإطلاق.

كنت دائما أسعى لمعرفة السبب وراء اتجاه رفيقي إلى الأبحاث الإجرامية، وإن كنت لم أجده قط في مزاج ملائم للمصارحة من قبل.

أما الآن فقد تمدد في كرسيه المريح ونشر المستندات على ركبتيه، ثم أشعل غليونه وجلس لبعض الوقت يدخن ويقلب أوراقه.

سألني قائلا:

ألم يسبق لي أن حدثتك عن فكتور تريفور قط؟

لقد كان صديقي الوحيد خلال العامين اللذين قضيتهما في الكلية. فأنا لم أكن قط رجلا اجتماعيا يا واطسون، بل كنت دائما أفضل الانزواء في غرفتي والعمل على إعداد أساليبي الخاصة في التفكير، ولذلك لم أختلط كثيرا بزملاء الدراسة. وبالرغم من ممارستي لبعض أنواع الرياضة كالملاكمة ومبارزة الهواة فلم يكن هناك أي قدر من التواصل بيننا، وساعد على ذلك أن مجال دراستي كان مختلفا عن باقي الزملاء، وكان تريفور هو الرجل الوحيد الذي عرفته عندما عقر كلبه كاحلي صباح أحد الأيام وأنا في طريقي إلى الكنيسة.

وعلى الرغم من كونها طريقة غير شاعرية فقد كانت فعالة لتكوين صداقة وطيدة، فقد كنت ولمدة عشرة أيام غير قادر على الوقوف واعتاد تريفور أن يأتي ويطمئن عليَّ. في البداية كانت مجرد زيارات

لدردشة قصيرة، ولكنها طالت بعد وقت قصير، وقبل نهاية المدة كنا قد أصبحنا أصدقاء مقربين حيث إنه كان رفيقا مخلصا وأصيلا تملؤه العزيمة والطاقة. وكان على العكس مني في معظم النواحي إلا أنه كانت لدينا بعض المواضيع المشتركة، فكونا رابطة اتحاد حين اكتشفت أنه- مثلي- بلا أصدقاء. وفي النهاية دعاني لزيارة منزل والده في قرية دونيثورب في نورفولك، وقد قبلت ضيافته لمدة شهر من الإجازة الطويلة.

كان من الواضح أن تريفور الأب على درجة من الثراء والمكانة الاجتماعية حيث كان قاضيا للصلح وصاحب أملاك في دنيثورب، وهي قرية صغيرة إلى الشمال من لانغمير بلد البحيرات.

أما المنزل فقد كان مبنيا من الحجر على الطراز القديم، مترامي الأطراف تحيط به أشجار البلوط ويقودنا إليه طريق ممهد بأحجار الكلس الصغيرة.

كان صيد البط البري في المستنقعات ممتازا وأيضا صيد السمك كان جيدا بشكل ملحوظ، كما كان لديهم مكتبة صغيرة ولكنها منتقاة بعناية، وقد أخذوها- كما فهمت- من صاحب المنزل السابق. وفوق

ذلك كله كان الطباخ محتملا فكان من الطبيعي أن تقضي هناك شهرا لطيفا إلا إذا كنت رجلا صعب الإرضاء.

كان تريفور الأب أرملا وصديقي هو ابنه الوحيد، وإن كنت قد سمعت بأنه كانت لديه ابنة ماتت بمرض الدفتيريا حينما كانت في زيارة إلى برمنغهام.

وقد أثار الأب اهتمامي لدرجة كبيرة؛ فقد كان رجلا ضحل الثقافة، وإن كان يتمتع بقوة طبيعية من الناحية الجسدية والعقلية فهو لا يكاد يعرف أي كتاب، ولكنه سافر بعيدا ورأى الكثير من هذا العالم وهو يتذكر كل ما تعلمه. أما عن شكله فهو ضخم مربوع القامة وشعره كث أشيب، أما وجهه فأسمر خشن وعيناه زرقاوتان قاسيتان إلى حد الشراسة. وبالرغم من ذلك فهو يشتهر في الريف باللطف والإحسان، وقد عرف عنه التساهل في أحكامه في قاعة المحكمة.

وفي مساء أحد الأيام بعد وصولي بقليل وفيما كنا نشرب الشاي بعد العشاء أخذ تريفور الابن يتحدث عن ملاحظاتي واستدلالاتي التي كنت قد كونت لها نظاما في ذلك الوقت (بالرغم من أنني لم أكن أعرف- بعد- الدور الذي ستلعبه في حياتي).

وكان من الواضح أن العجوز يظن أن ابنه يبالغ في وصفه لواحد أو اثنين من أعمالي البطولية المتواضعة، فقد قال وهو يضحك:

حسنا يا سيد هولمز. أنا أمثل موضوعا جيدا إذا كنت تستطيع استنتاج أي شيء عني.

أجبته قائلا:

أخشى أنه لا يوجد الكثير، وإن كنت أعتقد أنك أمضيت الشهور الاثنى عشر الماضية في خوف من أن تتعرض إلى اعتداء أو هجوم.

تلاشت الضحكة عن شفتيه وحملق إليَّ في دهشة شديدة ثم قال:

إن هذا صحيح تماما.

ثم قال وهو يلتفت ناحية ابنه:

أتعرف- يا فكتور- أنه عندما شتتنا عصابة السرقة تلك أقسموا أن يقوموا بالقضاء علينا؟

وقد هوجم السير إدوارد هولي بالفعل فالتزمت أنا الحذر منذ ذلك الوقت... وإن كنت لا أعرف كيف توصلت إلى ذلك يا سيد هولمز.

أجبته قائلا:

أنت تملك عصا جيدة جدا، وقد لاحظت من النقش أنك لم تحصل عليها إلا منذ عام أو أقل من ذلك، ولكنك تكلفت عناء نزع الرأس وصببت الرصاص في داخل التجويف لتجعل منها سلاحا فعالا. وقد تخيلت لن تتخذ مثل هذه الاحتياطات إلا لو كنت تخشى بعض المخاطر.

سأل مبتسما:

أثمة شيء آخر؟

لقد مارست الملاكمة في شبابك كثيرا.

صحيح مرة أخرى. ولكن كيف عرفت؟

هل رأيت في أنفي اعوجاجا؟

لا، بل هما أذناك؛ فهما تتميزان بخصائص أذن الملاكم في السماكة والفلطحة.

وماذا بعد؟

لقد أمضيت وقتا طويلا في الحفر كما يظهر من تصلب جلد يديك.

جاءت كل أموالي من حقول الذهب.

وذهبت إلى نيوزيلندا.

أصبت ثانية.

وقمت بزيارة اليابان.

إنك على حق تماما.

وقد ارتبطت من قريب بشخص الحروف الأولى من اسمه هي (ج أ)، ثم أردت نسيانه تماما بعد ذلك.

وقف السيد تريفور ببطء وهو يثبت عينيه الزرقاوتين الواسعتين عليَّ في حملقة غريبة هائجة، وبعد ذلك مال إلى الأمام ووقع مغشيا عليه فوق الطاولة!

وبالطبع- يا واطسون- تستطيع أن تتخيل كم صدمنا بذلك، أنا وابنه، وإن كانت النوبة لم تستغرق وقتا طويلا على أية حال حيث إنه عندما قمنا بفتح ياقته ورششنا على وجهه بعض الماء شهق مرة أو مرتين ثم استوى جالسا.

قال وهو يتكلف ابتسامه:

آه أيها الأولاد، أرجو أن لا أكون أخفتكم. فبالرغم من أنني أبدو

قويا إلا أن قلبي ضعيف بعض الشيء والقليل من الانفعال يصيبني بالإغماء. لا أعرف كيف تمكنت من ذلك يا سيد هولمز، ولكن يبدو لي أنك تتفوق على كل المخبرين الحقيقيين منهم والخياليين!

إن هذا هو طريقك في الحياة يا سيدي، ولتعتبرها نصيحة من رجل عنده خبرة كبيرة بالحياة.

وقد كانت هذه النصيحة ومعها المقدمة التي بالغ فيها في تقديره لقدراتي- إذا كنت ستصدقني يا واطسون- أول ما جعلني أشعر بأن ما كان حتى ذلك الوقت مجرد هواية يمكن أن يتحول إلى مهنة.

على أية حال فقد كنت في تلك اللحظة مهتما بالمرض المفاجئ لمضيفي حتى إنني لم أستطع التفكير بأي شيء آخر، فقلت له:

أرجو أن لا أكون قد قلت شيئا يسبب لك الألم؟

تحدث بطريقة شبة مازحة، وإن كان الرعب ما زال يكمن في عمق عينيه، وقال:

حسنا، لقد لمست وترا حساسا بالتأكيد. هل يمكنني أن أسألك كيف عرفت كل ذلك؟

وما هو القدر الذي تعرفه؟

قلت:

إن الأمر في منتهى البساطة؛ فعندما كشفت ذراعك لتسحب تلك السمكة رأيت وشما لحرفي الجيم والألف في ثنية مرفقك، وكان الحرفان ما يزالان واضحين بالرغم من أنه من الواضح- من الشكل المشوه لهما ومن تغير لون الجلد حولهما- أن جهودا قد بذلت لمحوهما، ولذا فقد كان من الواضح أنهما كانا حرفين مهمين جدا بالنسبة لك وإن كنت قد حاولت نسيانهما بعد ذلك.

صاح وهو يتنهد براحة وقال:

يا لعينك الثاقبة!

إن الأمر كما تقول تماما، ولكننا لن نتكلم عن هذا الأمر ولا عن الأشباح... فأشباح المحبين السابقين هي الأسوأ على الإطلاق. والآن فلنذهب إلى غرفة البلياردو لندخن السيجار بهدوء.

***

منذ ذلك اليوم، وبالرغم من كل مودته، كان هناك دائما بعض

الشك في تصرفات السيد تريفور نحوي، حتى إن ابنه علق على ذلك قائلا:

«لقد أخفت الحاكم لدرجة أنه لن يكون متأكدا أبدا بعد الآن مما تعرفه أو لا تعرفه». وهو لم يكن ينوي إظهار ذلك، أنا متأكد، ولكن الأمر تمكن من تفكيره لدرجة أنه ظهر في كل تصرفاته، وأخيرا اقتنعت بأنني أسبب له عدم الراحة فأنهيت زيارتي. ولكن في نفس اليوم الذي كنت سأغادر فيه وقعت حادثة ظهرت أهميتها بعد ذلك.

كنا- ثلاثتنا- جالسين على كراسي الحديقة ننعم بالشمس ونبدي إعجابنا بمنظر البحيرات عندما جاءت الخادمة لتقول إن بالباب رجلا يريد رؤية السيد تريفور.

سألها مضيفي:

ما اسمه؟

لم يذكر اسمه.

ماذا يريد إذن؟

يقول إنك تعرفه وإنه يرغب في محادثتك لدقيقة فقط.

أدخليه إلى هنا إذن.

وبعد ذلك بوقت قصير دخل رجل ضئيل كبير السن له طريقة تصرف متملقة ومشية ذليلة، وكان يرتدي سترة مفتوحة ملطخة على كمها ببقعة من القطران وقميصا أحمر وأسود وبنطالا من قماش قطني خشن وحذاء طويل الرقبة ثقيلا باليا. أما وجهه فكان نحيلا أسمر اللون خبيثا مع ابتسامة دائمة تظهر خطا من الأسنان الصفراء غير المنتظمة، وكانت يده المجعدة مغلقة بطريقة مميزة للبحارة. وحين تقدم باتجاهنا بطريقة متراخية سمعت السيد تريفور يصدر صوتا مثل الفواق من حلقه، ثم قفز واقفا وذهب إلى المنزل مسرعا، وإن كان قد عاد بعد لحظة، وحينها شممت رائحة الشراب القوية حين مر بي.

قال:

حسنا أيها الرجل، ما الذي يمكنني عمله لك؟

وقف البحار ينظر إليه بعينين مزمومتين وبنفس الابتسامة المستمرة على وجهه.

سأل:

ألا تعرفني؟

قال السيد تريفور بنبرة دهشة:

يا للعجب، يا إلهي! أنت هدسون بالتأكيد.

قال البحار:

صحيح يا سيدي... يا للعجب! لقد مضى أكثر من ثلاثين عاما منذ آخر مرة رأيتك فيها، وها أنت هنا في منزلك وأنا ما زلت أشقى لآكل اللحم المقدد.

قال السيد تريفور وهو يمشي ناحية البحار:

هراء، ستجد أنني لم أنس الأيام الخوالي.

ثم قال شيئا بصوت منخفض، وأردف بعد ذلك بصوت عال قائلا:

اذهب إلى المطبخ وستجد الطعام والشراب، وأنا على ثقة من أنني سأجد لك عملا.

قال البحار وهو يلمس مقدمة رأسه:

شكرا يا سيدي. لقد أنهيت للتو عامين من العمل على متن سفينة

شحن حيث كان هناك نقص في العمال، ولذلك فأنا أرغب في الراحة، وقد فكرت في أنه يمكنني الحصول عليها عندك أو عند السيد بيدوس.

صاح تريفور:

آه، وهل تعرف أين هو السيد بيدوس؟

قال الرجل بابتسامة شريرة:

فليباركك الله يا سيدي. أنا أعرف مكان كل أصدقائي.

وبعد ذلك مشي متراخيا خلف الخادمة ذاهبا إلى المطبخ.

وقد تمتم السيد تريفور لنا شيئا عن كونه كان رفيق سفينة للرجل عندما كان ذاهبا للبحث عن الذهب.

وبعد ذلك تركنا وذهب داخلا، وعندما دخلنا إلى المنزل بعد ذلك بساعة وجدناه ممددا على الأريكة في غرفة الطعام وهو ثمل تماما. وقد تركت هذه الحادثة كلها انطباعا سيئا عندي، ولم أكن آسفا حين غادرت دونيثوب في اليوم التالي حيث شعرت أن وجودي لا بد وأنه كان مصدر إحراج لصديقي.

***

حدث كل ذلك في الشهر الأول من أجازتنا الطويلة، وقد ذهبت بعدها إلى غرفتي في لندن حيث قضيت الأسابيع السبعة التالية في المعمل منهمكا في تجارب الكيمياء العضوية.

وفي أحد الأيام، حين كان الخريف في أواخره والإجازة توشك على الانتهاء، تلقيت برقية من صديقي يتوسل إليَّ فيها أن أرجع إلى دونيثورب ويقول إنه في حاجة شديدة إلى نصحي ومساعدتي.

وبالطبع فقد تركت كل شيء وتوجهت إلى الشمال مرة أخرى، وقابلني صديقي في المحطة بعربة تجرها الكلاب، ورأيت بلمحة خاطفة أن الشهرين الماضيين كانا في غاية الصعوبة عليه؛ فقد أصبح نحيلا مهموما وفقد شخصيته المرحة الصاخبة التي كانت تميزه.

كانت كلماته الأولى هي:

إن الحاكم يموت.

صحت:

مستحيل! ماذا حدث؟

سكتة دماغية أو صدمة عصبية... لقد كانت حالته حرجة للغاية

طوال اليوم وأشك في أننا سنجده حيا.

سألته وقد روعتني هذه الأخبار غير المتوقعة:

ماذا كان السبب؟

آه، هذا هو بيت القصيد. ادخل وسوف نناقش الأمر بينما نحن في الطريق. هل تذكر ذلك الرجل الذي جاء في المساء قبل أن تغادرنا؟

أذكره تماما.

هل تعرف من الذي سمحنا بدخوله البيت في ذلك اليوم؟

ليست لدي أية فكرة.

لقد كان الشيطان يا هولمز!

حملقت إليه بذهول.

نعم، لقد كان الشيطان بعينه؛ فلم نحظ بساعة هادئة منذ ذلك الوقت... ولا ساعة واحدة. فالحاكم لم يرفع رأسه قط منذ ذلك المساء، والآن سحبت منه الحياة وتحطم قلبه... كل ذلك بسبب هذا الملعون هدسون.

وما هو مصدر قوته؟

آه، هذا ما أنا مستعد لدفع الكثير حتى أعرفه. كيف يسقط الحاكم

المحسن اللطيف العزيز في براثن مثل هذا الشخص الغوغائي؟!

لكني سعيد جدا بمجيئك يا هولمز، فأنا أثق في حكمك وتقديرك وأعرف أنك ستنصحني بما هو أفضل.

كنا نمضي مسرعين على الطرق الريفية الجيرية الناعمة والبحيرات الممتدة أمامنا تلمع بالضوء الأحمر لغروب الشمس، وكنت أستطيع رؤية المداخن العالية وسارية العلم المميزة لمنزل المالك عبر البستان الموجود على يسارنا.

قال رفيقي:

لقد جعل أبي الرجل بستانيا، وكأنه لم يرض بذلك فمنحه ترقية ليصبح رئيسا للخدم، وبدا وكأن المنزل قد صار تحت رحمته ليتجول فيه ويفعل ما يريد، حتى إن الخادمات كن يشتكين من لغته البذيئة مما اضطر أبي إلى رفع رواتبهن جميعا لتعويضهن عن إزعاجه الدائم. وكان هذا الرجل يأخذ قارب أبي وأفضل مسدساته ويذهب في رحلات صيد صغيرة، كل ذلك وعلى وجهه علامات الخبث والسخرية والوقاحة، مما يجعلني أفكر أن أوسعه ضربا أكثر من عشرين مرة لو كان في مثل

عمري لقد اضطررت إلى السيطرة على نفسي بشدة كل هذا الوقت يا هولمز، والآن أسأل نفسي إذا كان ما فعلته هو التصرف الصحيح.

حسنا، لقد ازدادت الأمور ترديا وأصبح هذا الحيوان هدسون أكثر تطفلا حتى إنه قام مؤخرا ذات يوم، بينما كنت موجودا، بالرد على أبي بطريقة وقحة، وعندها أمسكت بكتفيه وأخرجته من الغرفة فانسل هاربا بوجه شاحب وعينين حقودين تنذران بتهديدات أكثر مما يستطيع لسانه. ولا أعرف ما الذي حدث بينه وبين أبي المسكين بعد ذلك، ولكن أبي جاء إليَّ في اليوم التالي وطلب مني الاعتذار إلى هدسون فرفضت.

ثم سألت والدي كيف يسمح لمثل هذا الحقير بأن يتصرف بحرية معه ومع كل من في المنزل فقال:

آه يا بني، من الجيد أن نتحدث.

أنت لا تعرف موقفي ولكنك سوف تعرف يا فكتور... سأحرص على أن تعرف وليحدث ما هو مقدر. ولكنك لن تصدق أي شيء عن أبيك العجوز المسكين، أليس كذلك؟

وكان متأثرا جدا فحبس نفسه في المكتبة طوال اليوم، حيث كنت أستطيع رؤيته من النافذة وهو مشغول بالكتابة. وفي ذلك المساء حدث ما بدا لي وكأنه خلاص كبير، حيث أخبرنا هدسون بأنه سوف يغادرنا. فقد دخل إلى غرفة الطعام بعد العشاء وأعلن عن نيته بصوت أجش لرجل نصف سكران. قال:

لقد مللت من نورفولك وسأذهب إلى السيد بيدوس في هامبشاير، وسوف يسر كثيرا لرؤيتي كما حدث معك يا سيدي.

فرد عليه أبي بتذلل جعل الدم يغلي في عروقي، قال:

أرجو أن لا ترحل إطلاقا يا هدسون.

فقال بامتعاض وهو ينظر ناحيتي:

لكنني لم أحصل على اعتذار.

قال أبي وهو ينظر إليَّ:

اعترف يا فكتور بأنك قد عاملت هذا الرجل الفاضل معاملة خشنة.

أجبته:

بالعكس؛ أنا أظن أننا صبرنا عليه بشكل غير عادي.

زمجر قائلا:

آه، أنت تظن ذلك؟

حسن جدا يا صاحبي، سنرى بشأن ذلك.

ثم خرج من الغرفة متراخيا، وبعد ذلك بنصف ساعة غادر المنزل تاركا أبي في اضطراب يرثى له. وليلة بعد أخرى كنت أسمعه يجوب غرفته قلقا، وحين بدأ يسترد اطمئنانه وقعت النكبة أخيرا.

سألت بلهفة:

وكيف كان ذلك؟

بأكثر الطرق غرابة؛ حيث وصل إلى أبي مساء أمس خطاب يحمل طابع بريد من فوردينغ بريدج، وحين قرأه أبي أمسك رأسه بكلتا يديه وراح يجري في الغرفة في دوائر صغيرة كرجل فقد رشده، وحين جررته إلى الأريكة أخيرا كان فمه وجفناه في حالة تشنج في ناحية واحدة، وأدركت أنه قد أصيب بجلطة دماغية. وجاء الدكتور فوردهام على الفور ووضعناه في السرير، ولكن الشلل انتشر ولم تظهر أي إشارة على

استعادته الوعي... ولا أظن إلا أننا سنجده الآن ميتا.

صحت قائلا:

إنك تخيفني يا تريفور!

ماذا يمكن أن يكون في تلك الرسالة ليسبب مثل هذه النتيجة المرعبة؟

لا شيء، وهذا هو الجزء الذي يصعب تفسيره؛ فالرسالة غريبة وتافهة... آه، يا إلهي! هذا ما كنت أخشاه.

وبينما كان يتكلم كنا ندور لندخل الطريق المؤدي إلى المنزل، ورأينا في الضوء الخافت أن كل ستائر المنزل مسدلة.

وحين أسرعنا إلى الداخل والحزن يكسو وجه صديقي خرج من البيت رجل يرتدي السواد، فسأله تريفور:

متى حدث ذلك يا دكتور؟

تقريبا بعد ذهابك مباشرة.

هل استعاد وعيه؟

للحظة قبل أن يموت.

هل ترك لي أية رسائل؟

لقد قال فقط إن الأوراق في الدرج الخلفي للخزانة اليابانية.

توجه صديقي مع الطبيب إلى حجرة الموت في حين بقيت أنا في المكتبة، فأخذت أقلب الأمر في عقلي مرة بعد أخرى وأنا أشعر بالكآبة كما لم أشعر بها في حياتي من قبل.

فما هو ماضي تريفور؟

وما الذي يجعل ملاكما ورحالة وباحثا عن الذهب يضع نفسه تحت رحمة هذا البحار ذي الوجه اللاذع؟

ولماذا أغمي عليه عند الإشارة إلى الأحرف الأولية نصف المطموسة على ذراعه؟

وما هو السبب في موته رعبا حين تسلم خطابا من فوردنغهام؟

وعندها تذكرت أن فوردنغهام تقع في هامبشاير وأن السيد بيدوس، الذي ذهب البحار لزيارته وربما لابتزازه، يعيش أيضا في هامبشاير؛ فإما أن يكون الخطاب- إذن- من هدسون البحار يخبره فيه بأنه أفشى السر أو من بيدوس يحذر فيه شريكه القديم من أن السر على

وشك الافتضاح.

حتى الآن كان كل شيء واضحا، ولكن كيف يصف ابنه الخطاب بأنه تافه وغريب؟

لا بد أنه لم يفهمه جيدا، ولو أن هذا هو ما حدث فلا بد أنه مكتوب بإحدى تلك الشفرات السرية البارعة التي يدل معناها على شيء في حين أنها تعني شيئا آخر.

قلت في نفسي:

يجب أن أرى هذا الخطاب، ولو كان هناك أي معنى خفي فيه فأنا على ثقة من أنني أستطيع اكتشافه.

وجلست لمدة ساعة أفكر بالأمر باكتئاب، وأخيرا حضرت الخادمة باكية تحمل مصباحا وخلفها مباشرة جاء صديقي. كان تريفور شاحب الوجه ولكنه كان متماسكا، وكان يمسك بنفس هذه الأوراق التي أضعها الآن على ركبتي.

جلس قبالتي ثم سحب المصباح إلى حافة الطاولة وأعطاني ملحوظة قصيرة مكتوبة بخط سييء- كما ترى- على ورق رمادي:

(عملية توريد طيور اللعبة إلى مدينة لندن انتهت. نعتقد أن الحارس هدسون تلقى الأوامر وأنه كشف طلبات الورق وكشف كل طلبات الطيور وأي شيء.

لتحافظ على الطيور اهرب بها فهذا طريق للنجاة).

أستطيع أن أقول لك إن الحيرة قد بدت على وجهي مثلما تبدو الآن على وجهك حين قرأت الرسالة للمرة الأولى.

وقد أعدت قراءتها بإمعان شديد ولكنها كانت مشفرة كما توقعت، ولا بد أن معنى خفيا يكمن في تلك التركيبة الغريبة من الكلمات أو ربما كانت هناك دلالات متفق عليها مسبقا لبعض العبارات مثل (توريد الطيور) و(طلبات الورق)، وفي هذه الحالة الأخيرة يكون معناها اعتباطيا ولا يمكن تخمينه بأية طريقة.

لقد كرهت أن أصدق أن الأمر كذلك، وبدا أن موضوع الرسالة كان كما خمنت وأنها لا بد أن تكون من بيدوس وليس من البحار. وحاولت قراءتها بالعكس ولكن التركيبة لم تكن مشجعة، ثم حاولت تبديل الكلمات ولكن دون جدوى.

وفجأة صار مفتاح اللغز في يدي؛ فقد وجدت أننا لو أخذنا كل رابع كلمة من الرسالة فسوف نحصل على عبارة ربما تقود تريفور الأب إلى اليأس. لقد كان التحذير قصيرا وقاسيا عندما قرأته آنذاك لرفيقي:

(اللعبة انتهت. هدسون كشف كل شيء. اهرب للنجاة)!

دفن فكتور تريفور وجهة في كفيه المرتعشتين وقال:

لا بد أن يكون ذلك صحيحا... إن هذا أسوأ من الموت حيث يعني العار أيضا... ولكن ما معنى عملية توريد الطيور وما إلى ذلك؟

لا علاقة لها بالرسالة فيما يبدو. يمكنك أن ترى أنه بدأ بكتابة:

اللعبة... انتهت... إلخ، وبعد ذلك ولإتمام الشفرة المتفق عليها مسبقا قام بوضع أي ثلاث كلمات في كل فراغ.

ومن الطبيعي أن يستخدم أول كلمات تخطر على باله، فإذا كانت في الرسالة كلمات تشير إلى الطيور والصيد فيمكن أن نضع احتمالا بأنه من هواة الصيد أو أنه من المتهمين بتربية الطيور. هل تعرف أي شيء عن هذا المدعو بيدوس؟

قال:

يا للعجب! لقد تذكرت الآن أن أبي المسكين قد اعتاد أن يتلقى منه دعوات للصيد في محميته كل خريف.

قلت:

فالرسالة منه بلا شك إذن. يبقى الآن أن نعرف ما هو هذا السر الذي كان هدسون البحار يهدد به هذين الرجلين الغنيين المحترمين.

صاح صديقي:

أخشى أن يكون في الأمر خطيئة أو عار يا هولمز. ولكني لن أخفي عنك أية أسرار؛ ها هو التصريح الذي كتبه أبي عندما عرف أن خطر هدسون بات وشيكا، وقد وجدته في الخزانة اليابانية كما أخبر أبي الطبيب. خذه واقرأه لي لأنني لا أملك الشجاعة لفعل ذلك.

وهذه- يا واطسون- هي الأوراق نفسها التي أعطاني إياها، ولسوف أقرؤها عليك كما قرأتها عليه في المكتبة في تلك الليلة. وكما ترى مكتوبا على الأوراق من الخارج فإنها تحتوي على بعض التفصيلات المتعلقة برحلة السفينة (غلوريا سكوت) من وقت مغادرتها ميناء

فالموث في الثامن من تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٨٥٥م إلى وقت تدميرها في خط العرض ١٥ درجة شمالا وخط الطول ٢٥ درجة غربا، والأوراق في هيئة خطاب نصه كما يلي:

ابني العزيز جدا،

الآن والعار يقترب مني ليدنس السنوات الأخيرة من حياتي أستطيع أن أعترف بكل الصدق والأمانة بما يلي:

ليس ما يجرح قلبي هو الرهبة من القانون ولا هو الخشية من فقدان مركزي في المجتمع أو حتى خوفي من أن يحتقرني كل من أعرفهم، بل هو التفكير بأنك ستخجل مني... أنت من أحبني ولم يكن عندك- كما أتمنى- من الأسباب إلا ما يحملك على احترامي، ولكن إذا وقعت النكبة التي كنت مهددا بوقوعها دائما فأرجو منك أن تقرأ هذا لتعرف مني مباشرة مقدار ذنبي.

أما إذا سارت الأمور على ما يرام واستجاب الله العظيم دعائي، ثم حدث لأي سبب أن هذه الأوراق لم يتم التخلص منها ووقعت بين يديك فإنني أناشدك- بذكرى أمك العزيزة وبالحب الذي كان بيننا-

أن تحرقها ولا تفكر بها مرة أخرى أبدا.

أما إذا وقع نظرك على هذا السطر فلا بد أنني قد فضحت وتم القبض عليَّ أو أن من المرجح- نظرا لضعف قلبي كما تعرف- أن أكون قد مت وتوقفت عن الكلام إلى الأبد. في كلتا الحالتين يكون وقت الكتمان قد فات، وكل كلمة أقولها لك هي الحقيقة الكاملة وأقسم على ذلك، كما أتمنى الرحمة من الله.

إن اسمي- يا ولدي العزيز- ليس تريفور؛ فقد كان اسمي في سنوات شبابي هو جيمس آرميتاج، وسوف تتمكن الآن من فهم الصدمة التي أصابتني منذ عدة أسابيع حين وجه لي صديقك من الكلمات ما قد يشير إلى اكتشاف سري.

لقد عملت وأنا باسم آرميتاج في مؤسسة لندن المصرفية، ثم ارتكبت جرما فحكم عليَّ بالنفي. لا تقس عليَّ بالحكم يا صغيري، فقد كان دين شرف، هكذا يسمى، وكان يجب عليَّ دفعه، فاستخدمت أموالا ليست لي لفعل ذلك وأنا على يقين من قدرتي على إعادتها قبل اكتشاف فقدانها.

لكن سوء الحظ لازمني؛ فالمال الذي كنت أعتمد عليه لم يأت وكشف فحص مبكر للحسابات عن هذا العجز، وكان من الممكن التعامل مع القضية بتساهل أكثر لكن القوانين كانت تطبق بصرامة أشد منذ ثلاثين عاما عما هي الآن، وهكذا وجدت نفسي في عيد ميلادي الثالث والعشرين مقيدا كمجرم مع سبعة وثلاثين من المحكومين في سفينة (غلوريا سكوت) المتجهة إلى أستراليا.

كان ذلك في عام ١٨٥٥م حين كانت حرب القرم في ذروتها، واستخدمت سفن نقل المجرمين القديمة بكثرة في النقل بالبحر الأسود مما أرغم الحكومة على استخدام سفن أصغر وأقل صلاحية لنقل سجنائها. وكانت سفينة (غلوريا سكوت) تستخدم في تجارة الشاي الصيني ولكنها كانت قديمة الطراز وذات مقدمة ثقيلة، كما أنها كانت سفينة عريضة حلت محلها السفن الشراعية الحديثة. كانت حمولتها خمسمئة طن، وإلى جانب السجناء الثمانية والثلاثين كانت تحمل ستة وعشرين من أفراد الطاقم وثمانية عشر ضابطا وقبطانا وثلاثة مساعدين، بالإضافة إلى طبيب وقسيس وأربعة حراس؛ أي أنها تحمل ما يقارب من مئة شخص، وكانوا موجودين جميعا حين أقلعنا

من فالموث كما ذكرت.

كانت الحواجز بين حجرات المذنبين رقيقة وضعيفة جدا بدلا من أن تكون من خشب البلوط كما هو الحال في سفن نقل المجرمين العادية. وكان الرجل الذي يقف خلفي تماما من الذين لاحظتهم بوجه خاص عندما اقتادونا على رصيف الميناء، وهو شاب له وجه رائق حليق مع أنف طويل نحيل وفكين شديدي القوة.

وكان يمشي في خيلاء رافعا رأسه بزهو، ثم إنه كان متميزا بطوله غير العادي، فلا أظن أن أيا من رؤوسنا كان ليصل إلى كتفيه، وأنا على ثقة من أن طوله لم يكن ليقل بأي حال عن ستة أقدام ونصف.

وكان من الغريب رؤية مثل ذلك الوجه المليء بالقوة والعزم وسط كل تلك الوجوه الواجمة المتعبة، وكان ذلك بالنسبة لي كمصدر الدفء في عاصفة ثلجية؛ ولذلك فقد كنت سعيدا حين اكتشفت أنه كان جارا لي، وكنت أكثر سعادة عندما سمعت همسة قريبة من أذني في عمق الليل وعرفت أنه قد تمكن من شق فتحة في اللوح الخشبي الفاصل بيننا.

قال:

أهلا يا زميل، ما هو اسمك؟

ولماذا أنت هنا؟

أجبته ثم سألته من يكون، فقال:

أنا جاك برندرجاست، ولسوف تتعلم أن تقدس اسمي قبل أن تنتهي من حديثك معي.

وتذكرت أنني سمعت عن قضيته لأنها كانت قضية أثارت هياجا هائلا في كل أنحاء البلاد قبل أن يقبض عليَّ ببعض الوقت. لقد كان رجلا ينحدر من عائلة ممتازة ولديه الكثير من القدرات العظيمة، لكنه كان ذا طبع شرير وذا براعة غريبة في الاحتيال على تجار لندن الكبار واستلاب مبالغ ضخمة منهم.

قال بفخر:

ها ها! أراك قد تذكرت قضيتي؟

تذكرتها جيدا بالفعل.

ألا تتذكر شيئا غريبا كان فيها؟

ما هو ذلك؟

لقد حصلت على ربع مليون جنيه، أليس كذلك؟

هذا ما يقولونه.

ولم يستردوا منه أي شيء؟

نعم.

سأل:

إذن أين سيكون المال باعتقادك؟

قلت:

ليس لدي أي فكرة.

صاح قائلا:

إنه بين أصابعي! إن عندي من الأموال أكثر من شعر رأسك، وعندما تملك المال- يا بني- وتعرف كيف تتعامل به وتوزعه تستطيع فعل أي شيء. حسنا، لا يمكن أن تعتقد أن شخصا قادرا على فعل أي شيء سيجلس حتى تبلى ملابسه في هذا الحبس ذي الرائحة الكريهة الناشئة من بقايا الفئران والخنافس والذي يشبه الكفن القديم. كلا، مثل هذا الشخص لا بد وأن يعتني بنفسه وبزملائه، ويمكنك أن

تعتمد على ذلك وتتمسك بهذا الشخص وأن تثق بأنه سيسحبك خارجا من هذا المكان.

لقد كان هذا أسلوبه في الكلام.

وفي البداية ظننت أنه لا يعني شيئا، ولكن بعد فترة وعندما اختبرني وجعلني أقسم بكل ما هو مقدس فهمت منه أن هناك حقا مؤامرة للسيطرة على السفينة، وأن دستة من السجناء قد رتبوها قبل أن يصعدوا على متنها، وأن برندرجاست هو القائد وأن أمواله هي الدافع المحرك.

قال:

معي شريك جيد ونادر الوجود، وهو يملك الأموال. هل تستطيع أن تخمن أين هو في هذه اللحظة؟

إنه قسيس هذه السفينة!

القسيس، وليس أقل من ذلك. لقد صعد على متن السفينة بالمعطف الأسود وكل أوراقه صحيحة ومعه ما يكفي من الأموال ليشتري هذه السفينة بكل ما فيها. إن أفراد طاقم السفينة كلهم معه قلبا وقالبا؛ فقد

اشترى إخلاصهم...

اشتراهم بالجملة! ومعه أيضا اثنان من الحراس والمساعد الثاني، ويمكنه الحصول على القبطان نفسه إذا اعتقد أنه ذو فائدة.

سألت:

وماذا سنفعل إذن؟

قال:

ماذا تعتقد؟ سنلطخ معاطف بعض هؤلاء الجنود بالدم.

قلت:

ولكنهم مسلحون.

ونحن أيضا سنكون كذلك يا بني. لدينا مسدسان لكل فرد منا، وإذا لم نستطع الاستيلاء على هذه السفينة وطاقمها إلى جانبنا فقد حان الوقت لنذهب إلى مدرسة للبنات! تكلم الليلة إلى جارك من الناحية اليسرى وانظر إن كان يمكننا الوثوق به.

فعلت ذلك فوجدت أن جاري الآخر شاب في نفس موقفي تقريبا وتهمته هي التزوير، وكان اسمه إيفانز (لكنه غيره بعد ذلك، وهو الآن

رجل غني وناجح في جنوب إنجلترا)، وكان مستعدا بما فيه الكفاية لينضم إلى تلك المؤامرة باعتبارها الوسيلة الوحيدة لإنقاذ أنفسنا.

وهكذا وقبل أن نعبر الخليج كان هناك اثنان فقط من السجناء لا يعرفان السر، كان أحدهما ضعيف العقل فلم نجرؤ على ائتمانه عليه والآخر كان يعاني من اليرقان ولم يكن ذا فائدة تذكر.

ولم يكن هناك ما يمنعنا من الاستيلاء على السفينة منذ البداية، فالطاقم كان مجموعة من الأشرار تم اختيارهم لهذا العمل على وجه الخصوص.

وقد كان القسيس الزائف يأتي لزيارتنا يوميا بحجة نصحنا وهو يحمل معه حقيبة سوداء من المفترض أن فيها كتيبات دينية، وكان يكثر من المجيئ حتى إنه في اليوم الثالث كان كل واحد منا قد رتب تحت سريره مبردا وزوجا من المسدسات ورطلا من البارود وعشرين طلقة، وبالإضافة إلى ذلك كان اثنان من الحراس يعملان كوكيلين لبرندرجاست وكان المساعد الثاني هو ذراعة اليمنى، ولم يبق ضدنا سوى القبطان واثنين من المساعدين وحارسين والملازم مارتن وجنوده الثمانية عشر والطبيب. وبالرغم من قوة مركزنا قررنا أن لا نهمل أي

احتياط وأن نقوم بالهجوم فجأة في أثناء الليل.

لكن الأمر حدث بأسرع مما كنا نتوقع على أية حال، وكانت الطريقة التي تم بها كما يلي:

ذات مساء بعد انطلاقنا بنحو ثلاثة أسابيع جاء الطبيب ليرى واحدا من السجناء كان مريضا، وحين وضع يده على السرير شعر بهياكل المسدسات.

ولو أنه صمت فربما أفشل كل شيء، ولكنه كان شابا عصبيا فصاح بدهشة وشحب وجهه، فعرف السجين ما حدث فقبض على الطبيب وكممه قبل أن يتمكن من تحذير الباقين، ثم ربطه إلى السرير وفتح الباب المؤدي إلى سطح السفينة فاندفعنا منه جميعا بسرعة.

وتم إطلاق النار على الحارسين وأيضا على العريف الذي جاءه ليستطلع الأمر، وبعدها أسرعنا إلى حجرة القبطان فإذا بنا نسمع صوت انفجار من الداخل فيما نحن نفتح الباب.

وحينما فتح الباب وجدناه مطروحا على الأرض وقد وقف القسيس وبيده مسدس يخرج منه الدخان. وفي ذلك الوقت قام أفراد

الطاقم بتقييد المساعدين، وبدا وكأن الأمر قد استقر. وتجمعنا في الغرفة الواسعة بجوار غرفة القبطان حيث أخذنا نتقلب على الآرائك ونتكلم كلنا في وقت واحد ونحن نشعر بالانفعال الشديد لأننا أصبحنا أحرارا مرة ثانية.

وكانت هناك خزائن على الجدران فقام ويلسون، القسيس المزيف، بكسر إحداها وأخرج منها زجاجات من الشراب فصببنا منها في الأقداح. وبينما نحن نتجرع الشراب سمعنا فجأة ودون أية مقدمات قرقعة البنادق في آذاننا، وامتلأ المكان بالدخان فلم نستطع رؤية ما هو أبعد من الطاولة.

وعندما وضحت الرؤية ثانية رأينا مجزرة حقيقية؛ فقد كان ويلسون وثمانية آخرون يتلوون الواحد فوق الآخر على الأرض وقد اختلطت دماؤهم بالشراب الأحمر على تلك الطاولة في منظر فظيع ما زال يصيبني بالغثيان حتى الآن كلما فكرت به!

وقد روعنا جميعا من هذا المنظر حتى لا أظن أننا كنا سنتخلى عن الأمر كله لولا وجود برندر جاست الذي هدر كالثور واندفع ناحية الباب بكل القوة الباقية فيه، فجرينا خارجا وراءه حيث وجدنا الملازم

وعشرة من جنوده عند ملاوم مؤخرة السفينة.

كانت النوافذ فوق طاولة غرفتنا مفتوحة قليلا فقاموا بإطلاق النار علينا من تلك الشقوق، وقد هجمنا عليهم قبل أن يستطيعوا إعادة ملء بنادقهم بالبارود فواجهونا بشجاعة، لكننا تفوقنا عليهم وانتهى الأمر خلال خمس دقائق. يا إلهي، لقد كانت مجزرة!

فقد كان برندرجاست كشيطان هائج يرفع الجنود كما لو كانت أطفالا ويرمي بهم من فوق السفينة سواء أكانوا أحياء أم أمواتا. وكان هناك رقيب مصاب إصابة بليغة وبالرغم من ذلك ظل يسبح لمدة طويلة تثير الدهشة حتى أطلق أحدهم النار على رأسه من باب الرحمة. وحين توقف القتال لم يبق من أعدائنا على قيد الحياة سوى الحراس والمساعدين والطبيب.

وقد نشأ نزاع حولهم؛ إذ كان كثير منا فرحين باستعادتنا حريتنا مرة أخرى لكنهم لم يرغبوا بالقتل، فقد كان قتل الجنود وبنادقهم في أيديهم شيئا والقتل بدم بارد شيئا آخر.

وقال ثمانية منا إنهم لن يوافقوا على ذلك، لكن كان من غير الممكن

التصدي لبرندرجاست ومن معه، فقد قال إن فرصتنا الوحيدة في النجاة هي في القيام بعمل نظيف وقال إنه لن يترك أحدا بمقدوره الجلوس في كرسي الشهود. وكدنا- نحن المعارضين- نصل إلى نفس مصير الأسرى، ولكنه قال في النهاية إن بوسعنا المغادرة في أحد القوارب كنت سأصاب الغثيان من تلك الوحشية وذلك التعطش إلى الدماء ورأينا أن الأمر سيسوء قبل أن ينتهي. فأعطونا ملابس بحارة لكل واحد وقارورة مياه وبرميلين، واحدا فيه أشياء عديمة الفائدة والآخر فيه كعك، وأعطونا بوصلة ورمى لنا برندرجاست خريطة وأخبرنا أن نتصرف كبحارة لسفينة تحطمت وغرقت في خط عرض ١٥ درجة شمالا وخط طول ٢٥ درجة غربا، ثم قطع حبل القارب وتركنا نذهب.

وصلنا الآن إلى الجزء الأكثر إثارة للدهشة في قصتي يا بني العزيز، فقد كان البحارة قد سحبوا عارضة الشراع الأمامية إلى الخلف في أثناء التمرد، وحين تركناهم قاموا بنشرها ثانية وبدأت السفينة تبتعد عنا بسبب وجود بعض الريح الخفيفة من الشمال والشرق.

وأخذ قاربنا يتهاوى ارتفاعا وانخفاضا على صفحة الأمواج

الممتدة الناعمة، وجلست أنا وإيفان (حيث كنا الأكثر تعلما في المجموعة) ندرس الخريطة لنعرف موقعنا ونخطط إلى أي الشواطئ يجب أن نصل. وقد كان سؤالا جيدا حيث كان ساحل رأس فيردز على بعد خمسمئة ميل شمالا والساحل الإفريقي على بعد سبعمئة ميل شرقا. وإجمالا وبما أن الرياح تأتي من الشمال فقد اعتقدنا أن سيراليون قد تكون أحسن اختيار وأدرنا رؤوسنا في ذلك الاتجاه.

كانت السفينة في ذلك الوقت مجرد شبح على ميمنتنا، وفجأة وفيما نحن ننظر إليها رأينا سحابة كبيرة من الدخان الأسود يتصاعد منها فيظهر كشجرة ضخمة على خط التقاء السماء بالأرض، وبعد ذلك بثوان معدودة سمعنا انفجارا يهدر كالرعد في آذاننا.

وحينما بدأ الدخان يتلاشى لم يكن هناك أثر باق للسفينة غلوريا سكوت، فأدرنا القارب فورا وجدفنا بكل قوتنا إلى المكان الذي ما زال الدخان الخفيف فيه يتصاعد عنده فوق الماء ليشير إلى مكان الكارثة.

مرت ساعة طويلة قبل أن نصل إلى المكان، وفي البداية خفنا أن نكون قد وصلنا متأخرين عن إنقاذ أي شخص، وكان وجود قارب محطم وعدد من صناديق الشحن وشظايا الصواري تهبط وترتفع مع

الأمواج يظهر لنا مكان غرق السفينة، ولكن لم يكن هناك أثر للحياة. وكنا قد استدرنا مبتعدين في يأس حين سمعنا صرخة استغاثة، ورأينا من بعد قطعة من الحطام ورجلا ممدا عليها، وعندما سحبناه إلى القارب تبين أنه بحار شاب اسمه هدسون، وكان يعاني من حروق شديدة وإرهاق عظيم فلم يستطع أن يخبرنا ما حدث حتى الصباح التالي.

علمنا أنه بعد مغادرتنا تابع برندرجاست وعصابته قتل السجناء الخمسة الباقين حيث تم إطلاق النار على الحارسين ورميا عن ظهر السفينة، وكذلك المساعد الثالث والطبيب وبقي المساعد الأول الذي كان رجلا جريئا، فما إن رأى المجرمين يقتربون منه حتى ألقى بقيوده التي كان قد تمكن من فكها بطريقة ما وأسرع إلى سطح السفينة فاقتحم المخزن الخلفي، وحين نزل إلى هناك اثنا عشر رجلا من المتمردين حاملين مسدساتهم بحثا عنه وجدوه يحمل في يده علبة ثقاب ويجلس بجوار برميل مفتوح من البارود، وقد كان ذلك البرميل واحدا من مئة أخرى على السفينة، وأخذ يقسم بأنه سيفجر كل شيء لو ضايقوه بأية طريقة.

وبعد لحظة حدث يالانفجار، بالرغم من أن هدسون يعتقد أن

سبب ذلك كان رصاصة طائشة من أحد المتمردين وليس بسبب ما يكون، فقد كانت تلك هي نهاية سفينة غلوريا سكوت والمتمردين الذين استولوا عليها.

هذا- يا بني العزيز- هو تفصيل ذلك العمل المريع الذي كنت متورطا فيه. وفي اليوم التالي انتشلتنا سفينة كانت متجهة إلى أستراليا، ولم يجد القبطان صعوبة في تصديق أننا الناجون من سفينة ركاب غرقت، أما سفينة النقل غلوريا سكوت فقد تم اعتبارها مفقودة في البحر ولم يتسرب أي خبر عن حقيقة مصيرها.

وبعد رحلة مريحة أنزلتنا السفينة في سيدني حيث غيرت اسمي وكذلك فعل إيفان وبدأنا طريقنا في التنقيب عن الذهب، ولم نجد صعوبة في التخلص من هويتنا القديمة وسط الحشود المجتمعة من كل البلاد.

والباقي لا أحتاج إلى سرده، فقد نجحنا في أعمالنا ثم عدنا كأننا من سكان المستعمرات الأغنياء إلى إنجلترا واشترينا بيوتا ومزارع في الريف، ولمدة تزيد على العشرين عاما عشنا حياة هادئة آمنة وتمنينا أن يكون الماضي قد دفن إلى الأبد.

ولك أن تتخيل شعوري حين عرفت الرجل الذي جاءنا وأدركت أنه البحار الذي أنقذناه من الحطام، فقد تبعنا بطريقة ما وقرر أن يعيش معتمدا على خوفنا. ولسوف تفهم الآن كيف تقت إلى البقاء على وفاق معه، ولعلك تتعاطف معي إلى حد ما حين أقول إن الخوف يملأ قلبي الآن وقد تركني وذهب إلى ضحيته التالية وهو يهدد ويتوعد.

وتحت ذلك كتب بيد مهزوزة جدا لدرجة أنها تكاد تكون غير مقروءة:

كتب إلى بيدوس بالشفرة ليخبرني بأنه قد فضح كل شيء فليرحم الله أرواحنا.

***

كانت تلك هي الحكاية التي قرأتها في تلك الليلة على صديقي تريفور. وقد وقع صديقي فريسة للحزن الشديد، ثم سافر إلى سيلان للعمل في مزارع الشاي حيث سمعت أنه نجح وجمع ثروة كبيرة. أما فيما يتعلق بالبحار وبيدوس فلم يسمع أحد عنها بعد ذلك اليوم الذي كتب فيه خطاب التحذير، فقد اختفى كلاهما تماما.

واتجهت شكوك الشرطة إلى أن البحار قد تخلص من بيدوس ثم لاذ بالفرار، أما أنا فأظن أن العكس هو ما حصل؛ فالاحتمال الأكبر أن يكون بيدوس- وهو يشعر باليأس بعدما تمت خيانته- قد انتقم لنفسه من هدسون وهرب من البلاد بما استطاع الوصول إليه من الأموال.

هذه هي الحقائق المتعلقة بهذه القضية يا صديقي، ولو كانت ذات فائدة لمجموعتك فهي تحت أمرك بكل رحابة صدر.

ملقّتْ

مغامرات شيرلوك هولمز

العقيق الأزرق

تأليف

آرثر كونان دويل

– ذهبت إلى صديقي شيرلوك هولمز في ثاني صباح بعد عيد الميلاد لأهنئه بمناسبة حلول العيد. فوجدته منهمكاً.

– «تبدو مشغولاً، لعلي أقاطعك؟»

– «إطلاقاً. يسرني أن يكون لي صديق يمكنني مناقشة نتائج أبحاثي معه».

– جلست في كرسي قرب الموقد لأدفئ يدي نظراً إلى البرد القارس في الخارج.

– بادر شيرلوك هولمز إلى القول باسماً: «إنها إحدى تلك الأحداث الصغيرة الغريبة التي تحصل عندما يكون هناك أربعة ملايين شخص يتدافعون في مساحة بضعة أميال مربعة.

وفي ظل فعل وردود فعل هذا السيل من الناس، يمكن توقع حصول أي شيء وظهور أية مشكلة عجيبة غريبة، من دون أن تكون بالضرورة إجرامية الطابع. وقد اختبرنا العديد منها حتى الآن».

– «صحيح. فثلاث قضايا من القضايا الست التي عملت عليها معك، خلت من أية جريمة قانونية».

– «بالضبط. أنت تعني طبعاً قضية أوراق إيرين أدلير وقضية

السيدة ماري ثاثرلند الغريبة ومغامرة الرجل ذي الشفة المقلوبة.

أنا واثق من أن هذه المسألة تصب أيضاً في نفس الخانة.

أنت تعرف المفوض بيترسون؟»

- «نعم».

- «هذا الإكليل يعود له».

- «إنها قبعته».

- «لا، بل عثر عليها. إليك كيف وصلت إلى هنا. وصلت صباح الميلاد مع إوزة مسمنة.

في الساعة الرابعة تقريباً من فجر الميلاد، كان بيترسون، وهو رجل نزيه جداً كما تعلم، عائداً في طريق محكمة توتنهام.

فرأى أمامه رجلاً طويل القامة يحمل إوزة بيضاء على كتفه.

وما أن وصل إلى زاوية شارع غودج، حتى نشب شجار بين هذا الرجل وزمرة من الأوغاد الذين نزع أحدهم القبعة عن رأس الرجل. سارع بيترسون إلى نجدته، لكن هذا الأخير هرب تاركاً إوزته ما أن شاهد

شخصاً حسن الهندام يتجه صوبه، واختفى في دهليز الشوارع الصغيرة.

هكذا بقي بيترسون وحده في ساحة المعركة مع غنائم القتال أي القبعة وإوزة العيد».

– «التي أعادها إلى صاحبها بالطبع؟»

– «هنا تكمن المشكلة يا عزيزي. صحيح أن اسم «السيدة هنري بيكر» طبع على بطاقة صغيرة علقت بقدم الإوزة، وأن حرفي «هب». طبعا على القبعة، إلا أن هناك الآلاف ممن يحملون هذا الاسم في المدينة وليس من السهل إيجاد صاحب الغرضين».

– «ماذا فعل بيترسون إذاً؟»

– «أحضر القبعة والإوزة صباح عيد الميلاد، يقيناً منه أن حتى أبسط المسائل تهمني.

احتفظت بالإوزة حتى صباح اليوم، لكني ارتأيت في النهاية أنه يجب أكلها قبل أن تفسد.

فحملها بيترسون لتلقى مصير الإوزات الأخريات. بينما احتفظت بقبعة الرجل المجهول الذي فوت عليه عشاء العيد».

- «ألم يضع إعلانا في الصحف؟»

- «لا».

- «ماذا تعرف عن هوية صاحبها».

- «لا أملك سوى بعض الاستنتاجات».

- «من هذه القبعة؟»

- «نعم».

- «لابد أنك تمزح».

- «إليك عدستي المكبرة. أنت تعرف طريقة عملي.

قل لي ماذا تستنتج عن شخصية من اعتمر هذه القبعة؟»

- تناولت القبعة وقلبتها بعناية.

- ثم قلت لصديقي وأنا أعيدها إليه: «لا أرى شيئاً».

- «على العكس يا واتسون، إنك ترى كل شيء لكنك عجزت عن تحليل ما تراه».

- «قل لي أنت ما أفادتك به هذه القبعة».

– أخذ هولمز القبعة وعاينها كما اعتاد أن يفعل دائماً. قال:

«إنه رجل مثقف كانت له مكانة اجتماعية جيدة في السنوات الثلاث الماضية، برغم تراجع أحواله المادية مؤخراً. قد تدل القبعة أيضاً على أن زوجته لم تعد تحبه».

– «بالله عليك يا هولمز!»

– «لكنه يتمتع مع ذلك بشيء من عزة النفس. يعيش حياة عادية وقلما يخرج، هو رجل في منتصف العمر، أشيب الشعر، قصه منذ أيام ويعتني به بواسطة كريم الليم.

هذا أبرز ما استنتجته من هذه القبعة».

– «لابد أنك تمزح يا هولمز».

– «إطلاقاً. لعلك لم تفهم بعد كيف توصلت إلى كل هذه النتائج؟»

– «أدرك تماماً أني أحمق، لكني أعترف أني لا أفهمك. كيف عرفت مثلاً أنه رجل مثقف؟»

– أجاب هولمز باعتمار القبعة. فغطت صلعته ولامست أنفه.

– «إنها مسألة حجم مكعب. فلا شك أن من له هذا الرأس الكبير، عنده شيء ما بداخله».

– «وتقهقر وضعه المالي؟»

– «اشترى هذه القبعة قبل ثلاث سنوات. وإذا كان باستطاعته شراء قبعة ثمينة كهذه قبل ثلاث سنوات، ولم يشتر قبعة أخرى بعد ذلك، فلا شك أن الدهر دار عليه».

– «تحليلك منطقي جداً. ماذا عن زوجته؟

قلت إنها لم تعد تحبه».

– «لم يتم تنظيف هذه القبعة منذ أسابيع. عندما أراك يا عزيزي واتسون تعتمر قبعة تراكم عليها الغبار منذ أسبوع، وعندما تسمح لك زوجتك بالخروج برغم الغبار عليها، أخشى أنك أنت أيضاً بدأت تفقد عطف زوجتك عليك».

«لعله أعزب».

– «لا، هذا واضح من البطاقة المرفقة بالإوزة التي كان يحملها لزوجته».

– أردفت مبتسماً: «لديك جواب على كل سؤال.

لكن إذا صح ما قلته الآن بأن أية جريمة لم ترتكب، وأن أي ضررٍ لم يلحق بأيٍ كان باستثناء خسارة الإوزة، يبدو لي كل هذا مضيعة للجهد».

– فتح هولمز فمه ليجيب لكن الباب انفتح ودخل منه المفوض بيترسون وقد بدت عليه أمارات التعجب.

– صرخ: «الإوزة سيد هولمز! الإوزة سيدي!»

– «ماذا عنها؟

هل دبت فيها الحياة مجدداً وطارت من نافذة المطبخ؟»

– «انظر سيدي!

انظر ماذا وجدت زوجتي فيها!»

– مد يده وقد وضع في وسطها حجراً أزرق اللون متوهجا، صغيراً بحجم حبة الفول لكنه نقي ولامع كنقطة كهربائية في عتمة قبضته.

– استوى هولمز على كرسيه قائلاً: «إنه كنز يا بيترسون!

أعتقد أنك تعي تماماً ما هذا؟»

– «إنها ألماسة، سيدي!

حجر كريم!

إنها الحجر الكريم بامتياز».

– سألت: «أوليست العقيق الأزرق لكونتيسة موركار؟»

– «هي بالذات. أنا أعرف حجمها وشكلها تماماً بما أني قرأت الإعلان الذي وضع في صحيفة التايمز لعدة أيام متتالية.

إنها فريدة من نوعها».

– استوضحت: «لقد فقدت في فندق كوسموبوليتان على ما أظن».

– نعم في الثاني والعشرين من كانون الأول (ديسمبر)، أي قبل خمسة أيام بالضبط، وقد اتهم السمكري جون هورنر بسرقتها من علبة مجوهرات الكونتيسة.

وكانت البراهين كثيرة ضده لدرجة أن القضية أحيلت إلى المحكمة العليا. علينا الآن أن نعيد رسم تسلسل الأحداث من علبة المجوهرات المسروقة وصولاً إلى مزرعة الإوز في طريق محكمة توتنهام. أترى، واتسون، لقد قادتنا استنتاجتنا إلى ناحية أكثر عمقا وأهمية مما هو

ظاهر. هذا الحجر الكريم أتى من الإوزة، والإوزة أتت من السيد هنري بيكر، ذلك الرجل الذي يعتمر القبعة البالية وذو المواصفات التي أملتك لدرجة ما كررتها عليك.

علينا الآن العثور على ذلك الرجل وكشف دوره في هذا اللغز المحير. لذا، سنلجأ أولاً إلى أبسط الوسائل، وهي طبعاً نشر إعلان في الصحف المسائية. في حال لم تنجح هذه الطريقة، نستعين بطرق أخرى».

– «ماذا ستكتب؟»

– «أعطني قلماً وورقة من فضلك. فلنر: «وجدت عند زاوية شارع غودج، إوزة وقبعة سوداء. باستطاعة السيد هنري بيكر استعادتها في تمام السادسة والنصف مساء على العنوان ٢٢١ب شارع بيكر.

«واضح ومقتضب».

– «جداً. لكن ماذا لو لم ير الإعلان؟»

– «لا شك أنه سيلقي نظرة على الصحف. إليك الورقة، بيترسون، اذهب إلى شركة الإعلانات واطلب منها نشر الإعلان في الصحف المسائية».

– «حسناً سيدي، والحجر الكريم؟»

– «سأحتفظ به. شكراً. ولو سمحت، بيترسون، أحضر معك في طريق العودة إوزة أخرى نعطيها لذلك الرجل بدل تلك التي تتلذذ بها عائلتك الآن».

– لما غادر المفوض، رفع هولمز الحجر الكريم وأخذ يحدق به في الضوء.

– «انظر كم يلمع ويبرق. لم يبلغ هذا الحجر بعد عشرين سنة. لقد وجد على ضفاف نهر أموي في جنوب الصين.

وهو مميز لأن له مواصفات العقيق باستثناء لونه الأزرق لا الياقوتي. إلا أن له تاريخاً حافلاً برغم حداثة سنه.

فقد تسبب بجريمتين ومغامرة خطرة وانتحار وعدة سرقات. من يتصور أن حجراً جميلاً كهذا قد يؤدي بحامله إلى السجن؟

سأضعه في خزنتي واتصل للكونتيسة لأعلمها بالأمر».

– «أتعتقد أن هورنر بريء؟»

– «لست أدري».

– «ماذا عن هنري بيكر، ألله يد في ما حصل؟»

– «على الأرجح أنه بريء ولم يكن يعلم أن الطير الذي يحمله أثمن مما لو كان مصنوعاً من الذهب الخالص.

لكني سأتأكد من الأمر من خلال اختبار بسيط إذا أجاب على إعلاننا».

– «لن تفعل شيئاً بالانتظار؟»

– «لا شيء».

– «في هذه الحال، سأتابع جولتي على مرضاي. لكني سأعود في المساء في الساعة التي ذكرتها».

– «يسرني ذلك. العشاء في تمام السابعة».

– تأخرت في معاينة مريض فلم أصل إلى شارع بيكر إلا متأخراً بعد السادسة والنصف بقليل.

شاهدت وأنا أقترب من المنزل رجلاً طويل القامة ينتظر في الخارج.

ما أن وصلت حتى فتح الباب أمامنا فدخلنا وارتقينا معاً السلم إلى غرفة هولمز.

– وقف هذا الأخير يرحب بضيفه برحابته العبقرية المعتادة.

«تفضل بالجلوس قرب الموقد سيد بيكر. لقد أتيت في الوقت المناسب يا واتسون. أهذه قبعتك سيدي؟»

– «نعم. إنها قبعتي بالتأكيد».

– كان يتكلم بشكل متقطع ويحسن اختيار كلماته، مما يعني عادة أنه رجل مثقف وضليع في الآداب.

– قال هولمز: «نحتفظ بهذه الأغراض منذ عدة أيام لأننا توقعنا أن تنشر إعلاناً تذكر فيه عنوانك لنعيدها إليك.

لم لم تفعل؟»

– ابتسم زائرنا خجلاً: «لأن الأحوال المادية غير جيدة منذ مدة. وكنت واثقاً من أن الزمرة التي اعتدت عليَّ قد سرقت قبعتي والإوزة معاً.

فما جدوى إنفاق المال على محاولة يائسة لاستعادتهما؟»

– «صحيح. على فكرة، اضطررنا إلى أكل الإوزة».

– «أكلها!»

– كاد زائرنا ينهض من كرسيه لولا طمأنه هولمز:

«نعم؛ فهي لم تكن لتفيد أحداً لو لم نأكلها. لكني أعتقد أن هذه الإوزة البديلة بنفس الحجم والنوعية تقريباً ستفي بالغرض على ما أظن؟

– أجاب السيد بيكر متنفساً الصعداء: «طبعاً، طبعاً!»

– «على فكرة، هل من مانع أن تقول لي من أين حصلت على الإوزة؟»

– كان السيد بيكر قد نهض من مكانه متأبطاً الإوزة الجديدة. إطلاقاً، سيدي.

أتردد وأصحاب لي إلى حانة ألفا قرب المتحف. وقد قرر مضيفنا العزيز السيد ويندیغيت أن يؤسس نادياً للإوز هذه السنة فتحصل من خلاله مقابل بضع بنسات في الأسبوع على إوزة في عيد الميلاد. وبما أني سددت مستحقاتي في موعدها. حصلت على الطير.

أنا مدين لك سيدي. «وانحنى بشكل مضحك أمامنا ثم ودعنا وغادر.

– قال هولمز عندما أغلق الباب وراءه: «من الواضح أنه يجهل الموضوع. هل أنت جائع يا واتسون؟»

– «ليس كثيرا».

– «أقترح إذاً أن تستبدل العشاء بحساء ونتابع القضية وهي لا

تزال ساخنة».

– «موافق».

– كانت ليلة باردة والنجوم تتلألأ في السماء الصافية وأنفاس المارة تتحول دخانا من أفواههم كطلقات نارية.

وما هي إلا ربع ساعة حتى وجدنا أنفسنا في بلومسبوري في حانة ألفا.

دفع هولمز الباب ودخلنا حانة خاصة حيث طلبنا كأسين من الجعة.

– قال هولمز:

«لا شك أن جعتكم ممتازة إذا كانت على شاكلة إوزاتكم».

– أجاب صاحب الحانة متعجبا: «إوزاتنا!»

– «نعم. كنت أتحدث قبل نصف ساعة مع السيد هنري بيكر، أحد أعضاء نادي الإوز».

– صحيح، فهمت الآن. لكنها ليست إوزاتنا. حصلت عليها من بائع في كوفنت غاردن يدعى بركنردج».

– «لا أعرفه. نخب صحتك ونخب ازدهار إوزتكم! طابت ليلتك».

– اجتزنا هولبورن فشارع إنديل ثم عبر سلسلة من الشوارع المتشابكة وصولا إلى سوق كوفنت غاردن.

تحمل إحدى أكبر الأكشاك اسم بركنردج بينما كان المالك يساعد صبيا على الإقفال.

– «مساء الخير.

يا لها من ليلة باردة».

– هز البائع رأسه ورمق صديقي بنظرة متسائلة.

– تابع هولمز مشيرا إلى الرفوف الرخامية الفارغة:

«لقد نفدت من الإوز كما أرى. لقد أوصوني بك».

– «من؟»

– «مالك حانة ألفا».

– «نعم لقد أرسلت إليه بعض الإوزات».

– «إوزات ممتازة. من أين حصلت عليها؟»

– فوجئت لرؤيته يغضب لسؤالي.

– أجاب وقد رفع رأسه ووضع يديه على خاصرته:

«بالله عليك، إلام تلمح؟

فلنوضح الأمور فورا».

– «إنها واضحة جدا. أريد فقط أن أعرف من باعك الإوزات التي زودت بها حانة ألفا».

– « أقول لك وافعل ما تشاء!»

– «حسنا، إنه أمر تافه، لكني أراهن بخمسة جنيهات على أنها بلدية».

– «لقد خسرت رهانك إذاً لأنها تربية المدينة».

– «ليست كذلك».

– «قلت بلى».

– «لا أصدقك، ولن تنجح أبدا في إقناعي».

– «أتراهن؟»

– «ستفقد مالك لأني واثق من أني على حق. لكني سأجاريك لألقنك درساً في العناد».

– صرخ غاضبا إلى الولد: «أحضر لي الدفتر، بيل!»

– فجلب الفتى مجلدا صغيرا سميكا وآخر كبيرا وضعهما تحت المصباح المتدلي.

– قال البائع: «هذه لائحة بأسماء من اشترى منهم. أترى؟ هذه لائحة من باعة الإوز البلدي. وهذه الصفحة التي كتب عليها بالحبر الأحمر تضم الباعة في المدن.

انظر إلى الإسم الثالث.

هلا قرأته لي؟»

– قرأ هولمز بصوت عال:

«السيدة أوكشوت، ١١٧ طريق بركستون – ٢٤٩».

– «ما هو آخر ما دون على الدفتر؟»

– «٢٢ كانون الأول (ديسمبر). أربع وعشرون إوزة بيعت إلى السيد ويندیغيت في ألفا».

– «هل من تعليق؟»

– نظر هولمز نظرة يائسة ثم أخرج قيمة الرهان من جيبه ووضعه على الرف. وبعدما ابتعدنا قليلا، توقف قرب مصباح وراح يضحك من كل قلبه كما اعتاد أن يفعل.

– «الحقيقة يا واتسون أننا اقتربنا من النهاية على ما أظن. بقي أن نقرر هل نذهب إلى السيدة أوكشوت الليلة أو نؤجل الزيارة إلى الغد. من الواضح بحسب ما قاله ذاك الرجل أننا لسنا وحدنا المهتمين بهذه القضية، وعلى..».

– قاطعت جلبة صادرة من الكشك الذي غادرناه للتو ملاحظاته. التفتنا فرأينا رجلا صغير القامة يتوسط حلقة النور الأصفر الآتي من المصباح، بينما البائع بركندج يحرك قبضتيه بعنف باتجاه الرجل المجهول.

– صرخ: «لقد سئمت إوزكم! فلتحضر السيدة أوكشوت إلى هنا وأنا أجيبها، لكن ما شأنك أنت؟»

– تمتم الرجل الصغير: «إن إحداها تعود لي أيضا».

– «سل إذاً السيدة أوكشوت عنها».

– «لكنها طلبت مني أن أسألك أنت».

– «لقد طفح الكيل. اذهب من هنا!» وتراجع فجأة إلى الوراء بينما اختفى الرجل المجهول في ظلمة الليل.

– همس هولمز: «لعل هذا سيوفر علينا عناء الزيارة إلى طريق بركستون. تعال معي، سنرى ما قصة هذا الرجل.

«تغلغل وسط الحشود قرب الأكشاك إلى أن وصل إلى الرجل القصير القامة وربت على كتفه. استدار هذا الأخير شاحب الوجه لشدة خوفه.

– سأل بصوت مترنح: «من أنتما؟

ماذا تريدان مني؟»

– أجاب هولمز بهدوء: «اعذرني، لقد سمعت الأسئلة التي طرحتها على البائع قبل قليل. أعتقد أنه بإمكاني مساعدتك».

– «أنت؟ ومن تكون؟

ما علمك أنت بهذه القضية؟»

– «أدعى شيرلوك هولمز. ومهمتي أن أعرف ما لا يعرفه الناس».

– «لكنك لا تعرف شيئا عن هذه القضية».

– «المعذرة، إني أعرف كل شيء عنها. إنك تحاول العثور على

إوزات باعتها السيدة أوكشوت في طريق بركستون إلى بائع يدعى بركنردج الذي باعها بدوره إلى السيد ويندیغيت في ألفا وهذا الأخير باعها إلى ناديه الذي ينتمي إليه السيد هنري بيكر».

– «لطالما تمنيت أن ألتقي برجل مثلك سيدي! المسألة تهمني كثيرا».

– أوقف هولمز عندها عربة كانت مارة من هناك. «في هذه الحالة، من الأفضل مناقشة الموضوع في غرفة دافئة لا في هذه السوق التي تعصف فيها الرياح. لكن، هلا قلت لي أولا من لي الشرف بمساعدته؟»

– تردد الرجل لبرهة ثم أجاب:

«أدعى جون روبنسون... واسمي الحقيقي جيمس رايدر».

– «المدير المسؤول عن فندق كوسموبوليتان. تفضل إلى العربة وسأطلعك قريبا على كل ما تهمك معرفته».

– نظر الرجل إلى كلينا بمزيج من الخوف والأمل، متسائلا هل هو على شفير الهاوية أو الكارثة.

– قال هولمز عندما دخلنا غرفته:

«ها قد وصلنا! تريد أن تعرف إذاً ماذا حل بتلك الإوزات؟»

– «نعم سيدي».

– «أو بالأحرى بتلك الإوزة تحديدا. لأني أعتقد أنك مهتم بإوزة واحدة ذات خط أسود على ذيلها».

– أجاب رايدر متحمسا: «هلا قلت لي ماذا حل بها سيدي؟»

– «وصلنا إلى هنا». «هنا؟»

– فتح هولمز خزنته وأخرج منها جوهرة العقيق الأزرق التي سطعت كالنجمة نورا متوهجا باردا.

مكث رايدر يحدق بها مذهولا، وقد احتار في أمره أيطالب بها أم يتخلى عنها.

– تعثر للحظة وكاد أن يقع.

جلس ينظر مرعوبا إلى متهمه.

– «إني أملك كل الأدلة اللازمة ولم يبق إلا القليل من الغموض. لكن علك تساعدني على تبديده لإنهاء القضية.

هل سمعت عن الحجر الأزرق من كونتيسة موركار فعلا؟»

– أجاب بصوت مرتجف: «لا بل من كاثرين كوزاك».

– «خادمة الكونتيسة. ولا شك أن فكرة الإثراء السريع تملكتك كما تملكت الكثيرين من قبلك؛ لكنك لم تتأن كثيرا في الطرق التي استعملتها. كنت تعلم أن السمكري هورنر اتهم بمثل هذه الحالات سابقا وأن أصابع الشك ستوجه إليه حتما.

فماذا فعلت؟

اختلقت مهمة ما في غرفة الكونتيسة، بالتواطؤ مع الخادمة كوزاك طبعا، فاستعين بهورنر.

ولما غادر الغرفة، عبثت بعلبة المجوهرات وأعطيت الإنذار فألقي القبض على الرجل المسكين. ثم..».

– ارتمى رايدر فجأة على الأرض عند قدمي هولمز.

«بالله عليك، رأفة بي!

فكر بوالدي!

بوالدتي!

سينفطر قلبهما. لم أسئ التصرف يوما! التوبة!

أقسم، أقسم على الكتاب المقدس ألا أفعل ذلك بعد الآن. أتوسل

إليك ألا تحيل القضية إلى المحكمة».

– رد عليه هولمز بصرامة: «عد إلى مكانك! ما نفع التوسل والبكاء الآن وأنت لم تفكر لحظة بالمسكين هورنر الذي أدين بجريمة لم يرتكبها».

– «سأرحل سيدي. سأغادر البلاد. فتسقط التهمة عنه».

– «سنتحدث عن هذا لاحقا. فلنسمع الآن حقيقة ما حصل منذ البدء. كيف وصل الحجر الكريم إلى داخل الإوزة وكيف وصلت الإوزة إلى السوق؟

قل الحقيقة لأنها خلاصك الوحيد».

– «عندما أوقف هورنر، اعتقدت أنه من الأفضل لي أن أبعد الحجر الكريم لأن الشرطة قد تأتي في أي ساعة لتفتشني وتفتش غرفتي. ولم يكن من مكان آمن في الفندق فقصدت منزل شقيقتي.

– وكان لي صديق يدعى مودسلي وقد حدثني لما التقيته ذات يوم عن مناورات اللصوص للتخلص من مسروقاتهم.

فقررت الذهاب إليه في كيلبورن حيث يعيش وإطلاعه على الأمر ليعطيني طريقة أحول فيها الحجر الكريم إلى مال. لكن كيف أصل إليه بسلام؟

وبينما أنا متكئ على الحائط أفكر في طريقة آمنة وأراقب الإوزات المارة عند قدمي، راودتني فكرة محنكة ستعصى حتى على أذكى المفتشين.

– «كانت شقيقتي قد طلبت مني أن أختار لها إوزات الميلاد. فقررت أن آخذ إوزة من هذه لأضع فيها الحجر الكريم وأحمله إلى كيلبورن.

استملحت إحدى الإوزات الكبيرة الحجم الممتلئة، البيضاء اللون، ذات الذيل المخطط بالأسود. ثم فتحت منقارها وأدخلت الحجر الكريم في حلقها إلى أقصى العمق الذي طالته أصابعي.

انتفض الطير وشعرت بالحجر ينزلق في معدته إلى أن استقر في بطنه. وظلت الإوزة ترتعد بين ذراعي إلى أن خرجت شقيقتي تستعلم عما يحصل.

وما أن التفت لأكلمها حتى أفلتت الإوزة اللعينة وعادت إلى الإوزات الأخرى.

– «قبضت على الإوزة من جديد وحملتها إلى كيلبورن. هناك أطلعت صديقي على ما حصل. تناولنا سكينا وفتحنا الإوزة. كاد الدم يتجمد في عروقي إذ لم يكن هناك أي أثر للحجر الكريم. فأدركت أني ارتكبت خطأ فادحا.

تركت الإوزة وهرعت عائدا إلى شقيقتي، لكني لم أجد أية إوزات. سألتها أين اختفت فقالت إنها لدى بركنردج في كوفنت غاردن.

– «سارعت عندها إلى بركنردج بأقصى سرعتي لكنه أعلمني أنه باع الكثير منها دفعة واحدة ولم يعد يذكر هوية من اشتراها، كما سمعتما الليلة. تعتقد شقيقتي أني مجنون، حتى أنا أعتقد ذلك أحيانا.

هكذا أصبحت لصا من دون أن ألمس حتى الثروة التي ضحيت بسمعتي من أجلها.

فليساعدني الله! فليساعدني الله!

– وانفجر باكيا ووجهه مغمور بين يديه.

– تلا ذلك صمت طويل، لم يعكره سوى تنفسه الثقيل، وقرع شيرلوك هولمز الخفيف حافة الطاولة بأطراف أصابعه. ثم نهض صديقي، وفتح الباب.

– «اخرج!»

– «ماذا، سيدي!

فليباركك الله!»

– «لا داعي للكلام.

اخرج فحسب!»

– لم تكن هناك حاجة إلى قول المزيد. سمعناه يهرع على السلم ويصفع الباب وراءه ويعجل خطاه في الشارع.

– علق هولمز على ما حصل بعد أن تناول غليونه المصنوع من الصلصال: «الواقع، يا واتسون، أني لست مجبرا على تغطية ثغرات الشرطة. فلو كان هورنر بخطر لتغير الأمر.

أعتقد أني ارتكب جناية، لكن لعلي أيضا أنقذ إنسانا. أنا واثق من أنه لن يكرر خطأه بعد الآن لشدة خوفه. ولو زجيناه مرة في السجن، لاعتاد السجون.

ليتك تقرع الجرس، دكتور، لأننا على وشك بدء تحقيق جديد محوره أيضا طير».

تمّت

مغامرات شيرلوك هولمز

مغامرة الرجل الأحدب

تأليف: آرثر كونان دويل

مغامرة الرجل الأحدب

في إحدى ليالي الصيف بعد زواجي بأشهر قليلة كنت جالسًا بجوار المدفأة أقرأ إحدى الروايات ورأسي ينحني من النعاس بعد يوم عمل شاق، وكانت زوجتي قد صعدت بالفعل إلى الدور العلوي، وعرفتُ من صوت إغلاق الباب في البهو أن الخدم أيضًا قد غادروا منذ بعض الوقت.

قمت عن مقعدي وقد عزمت على الذهاب إلى النوم، وعندما سمعت دقّ الجرس! نظرت إلى الساعة فكانت الثانية عشرة إلّا ربعًا؛ لا يمكن أن يكون القادم زائرًا في هذا الوقت المتأخر؛ إنه مريض على ما يبدو، ومن الممكن أن يستغرق فحص مثل هذا المريض الليل كله. ذهبت إلى البهو وفتحت الباب وأنا متجهم الوجه، ولدهشتي كان شيرلوك هولمز هو من يقف على عتبة بابي!

قال: صديقي واطسون، لقد تمنّيت أن لا أكون متأخرًا حتى أدركك قبل أن تنام.

– يا صديقي العزيز، ادخل من فضلك.

– تبدو عليك الدهشة، ولا عجب في ذلك، والارتياح أيضًا على ما أظن. حسنًا، هل ستتحملني الليلة؟ بكل سرور.

– لقد أخبرتَني بوجود غرفة إضافية لفرد واحد، وأرى أنه لا يوجَد في بيتك زوّار من الرجال هذه الليلة كما يظهر من علاقة القبعات.

– سأكون مسرورًا إذا بقيت.

– شكرًا لك، سأملأ المشجب الفارغ إذن يؤسفني أن أرى أن عاملًا كان عندك اليوم في المنزل؛ إنه علامة على وقوع مشكلة. آمل أن المشكلة لم تكن في أنابيب الصرف.

– بل في الغاز.

– لقد ترك علامتين لمسامير من صندوقه على مشمَّع الأرضيات عندك في نفس المكان الذي ينعكس عليه الضوء بالضبط.

سألته إن كان يرغب في تناول العشاء فقال: لا، شكرًا لك، لقد تناولت عشائي في محطة واترلو، ولكنني سأشرب معك الشاي بكل سرور.

جلست وجلس على المقعد المقابل صامتًا لبعض الوقت، وكنت مدركًا تمام الإدراك أنه ما كان ليحضر لزيارتي في مثل هذا الوقت إلا لأمر في غاية الأهمية، فانتظرت صابرًا حتى يخبرني بنفسه.

قال وهو ينظر إليّ باهتمام: أرى أنك مشغول بعملك هذه الأيام؟

أجبته قائلًا: أجل، لقد كان يومي مزدحمًا.

ثم أضفت: قد يبدو الأمر سخيفًا من وجهة نظرك، ولكنني لا أعرف حقًا كيف استنتجت ذلك!

ابتسم هولمز وقال: أنا أعرف عاداتك يا عزيزي واطسون، فعندما تكون في جولة قصيرة فأنت تفضّل المشي، ولكنك تستخدم العربة ذات العجلتين في الجولات الطويلة، وقد لاحظت أن حذاءك ليس متّسخًا بأي حال بالرغم من أنه قد استُخدم، وهكذا فلم أشكّ في أنك مشغول بما فيه الكفاية هذه الأيام لتستخدم العربة.

صحت قائلًا: ممتاز!

قال: أمر بسيط؛ إنها إحدى الحالات التي يقوم فيها المحلل المنطقي بإحداث انطباع شديد في نفس صاحبه، ولكن هذا يحدث فقط لأن

صاحبه قد أغفل نقطة صغيرة واحدة تكون هي أساس الاستنتاج. ويمكن أن نصف بشكل مشابه التأثير الذي تُحدِثه قصصك الصغيرة يا صديقي العزيز، والذي هو تأثير خادع تمامًا ويعتمد على احتفاظك ببعض حقائق المشكلة بحيث لا تكشفها للقارئ أبدًا.

ثم مال إلى الأمام وقال: وأنا في مصل موقف هؤلاء القرّاء في الوقت الحاضر؛ فأنا أحمل في يدي العديد من الخيوط لواحدة من أغرب القضايا المحيّرة، وبالرغم من ذلك ينقضي دليل أو اثنان أراهما ضروريّين لإكمال نظريتي، ولا بدّ أن أحصل عليهما يا واطسون... سأحصل عليهما بكل تأكيد.

توهّجت عيناه وتدفّقت حمرة خفيفة إلى وجنتيه النحيلتين للحظة فقط، فحين نظرت إلى وجهه ثانية وجدت أنه قد استعاد رباطة جأشه المعهودة ليبدو باردًا كالهنود الحمر. وهذه الصفة فيه هي ما يجعل الكثيرين ينظرون إليه على أنه آلة.

قال: المشكلة تقدّم عناصر مثيرة للاهتمام، بل يمكنني القول إنها عناصر استثنائية، وقد بحثت الأمر بالفعل وتوصلت إلى أطراف الحلّ كما أظن، فلو استطعتَ مرافقتي في هذه الخطوة الأخيرة فستكون قد

أدّيت لي خدمة كبيرة.

– سيكون هذا من دواعي سروري.

– هل يمكنك الذهاب إلى أَلْدَرْشوت غدًا؟

– نعم، وسوف يتولى جاكسون أمر عيادتي.

– ممتاز؛ أودّ أن ننطلق في الساعة الحادية عشرة والربع من محطة واترلو.

– هذا سوف يمنحني بعض الوقت.

– حسنًا إذن، وإذا لم تكن راغبًا في النوم الفوري فسأقوم بإعطائك وصفًا لما حدث وما تبقّى لكي نقوم به.

– لقد كنت أغالب النعاس قبل قدومك، أما الآن فأنا متيقّظ تمامًا.

– سألخص القضية قدر الإمكان دون حذف أي حقيقة حيوية، ومن الممكن أيضًا أن تكون قد قرأت بعض التقارير عن هذا الموضوع. إنني أحقق في جريمة القتل المزعومة للكولونيل باركلي (من كتائب المونستر الملكية) في ألدرشوت.

– لم أسمع عنها أي شيء.

قال هولمز: إنها لم تُثِر حتى الآن اهتمامًا كبيرًا إلا على المستوى المحلّي، فالحقائق عُرفت منذ يومين فقط، وها هي باختصار:

إن كتائب المونستر الملكية- كما تعرف- هي من أشهر الكتائب الأيرلندية في الجيش البريطاني، وقد برز دورها في حرب القرم أولًا ثم في مكافحة التمرد الكبير في الهند، ومنذ ذلك الوقت تميّزت في كل حملة خاضتها. وكان قائدها حتى يوم الإثنين الماضي هو الكولونيل جيمس باركلي، وهو محارب شجاع بدأ جنديًا ثم تمّت ترقيته إلى رتبة ملازم ثانٍ لشجاعته خلال التمرد، ثم صار قائدًا للكتيبة التي بدأ خدمته العسكرية فيها.

تزوّج الكولونيل باركلي في الوقت الذي صار فيه رقيبًا، وكانت زوجته (التي كان اسمها قبل الزواج الآنسة نانسي ديفوي) ابنة رقيب الشرف في الفيلق نفسه. ولابد أن بعض الصعوبات الاجتماعية قد نشأت- كما يمكن أن تتصور- عندما وجد الزوجان الشابان نفسيهما في بيئتهما الجديدة، لكنها سرعان ما تكيّفا مع الوضع، وكما فهمت فقد حظيَت السيدة باركلي دائمًا بشعبية بين سيدات الكتيبة، كما حظيَ زوجها بشعبية مماثلة بين زملائه الضباط. ويمكنني أن أضيف أنها كانت سيدة على درجة كبيرة من الجمال، بل إنها ما زالت تتمتع بجمال

وجاذبية حتى اليوم بعد ثلاثين عامًا من الزواج.

بدت الحياة العائلية للكولونيل باركلي سعيدة، وقد أكّد لي الميجور مورفي (الذي زوّدني بمعظم الحقائق عن هذه القضية) أنه لم يسمع قط عن سوء تفاهم بين الزوجين. وبوجه عام فهو يعتقد أن تعلق باركلي بزوجته كان أعظم من تعلقها به، فقد كان الاضطراب يبدو عليه جليًّا إذا ما تغيّب عنها ولو ليوم واحد، أما هي فقد كانت أقل إظهارًا لعواطفها بالرغم من إخلاصها وتفانيها. وعلى أية حال فقد نظر إليهما كلُّ من في الكتيبة على أنهما نموذج مثالي لزوجين سعيدين، ولم تَبدُ في العلاقة بينهما أي إشارة تُعِدّ الناسَ للمأساة التي حدثت بعد ذلك.

ويبدو أن الكولونيل باركلي نفسه كان يتميز بصفات طيبة، فقد كان جذّابًا بَشوشًا عندما يكون في مزاجه المعتاد، وإن كان قد أظهر - في بعض المناسبات - أنه قادر على الحقد والتصرف بعنف شديد، ولكنه لم يُظهِر هذا الجانب من شخصيته قط ناحية زوجته على أية حال.

والحقيقة الأخرى التي أذهلت الميجور مورفي وثلاثة آخرين من الضبّاط الخمسة الذين تحدثت معهم هي الاكتئاب الشديد الذي كان يصيب الكولونيل باركلي في بعض الأحيان، وقد عبّر مورفي عن ذلك

فقال إن الابتسامة في مثل تلك الأوقات كانت غالبًا ما تغيب عن وجهه كما لو أن يدًا خفيّة قد انتزعتها، لدرجة أنه كان يغرق في حالة من الاكتئاب العميق لأيام طويلة متصلة عندما يكون في تلك الحالة المزاجية!

كانت هذه الصفة ومعها مسحة من الاعتقاد بالخرافات هما الصفتان الغريبتان في شخصية باركلي اللتين لاحظهما زملاؤه الضبّاط، وكانت الصفة الأخيرة- على وجه الخصوص- قد ظهرت على شكل كراهيته لأن يُترك وحيدًا، ولا سيما في الظلام. وقد تسببت هذه الصفة الطفولية- نظرًا إلى طبيعته الخشنة بشكل ملحوظ- في كثير من التعليقات والتخمينات في أغلب الأحيان.

تمركزت الكتيبة الأولى من كتائب المونستر الملكية (وهي الكتيبة القديمة رقم ١١٧) في ألدرشوت لبضع سنوات، حيث عاش الضباط المتزوجون في ثكنات، أما الكولونيل فقد شغل طوال تلك المدة دارَة (فيلّا) اسمها «لاشين»، وهي تبعد نحو نصف ميل عن المعسكر الشمالي، والبيت مقام على حدائق خاصة ويبعد عن الطريق نحو ثلاثين مترًا من الناحية الغربية للمنزل، وقد سكن الدارة- إضافة إلى السيد والسيدة باركلي- سائق عربة وخادمتان فقط. ولم يكن عند عائلة

باركلي أطفال، كما لم يكونا معتادَين على وجود زائرين مقيمين.

ننتقل الآن إلى الأحداث التي حدثت في «لاشين» مساء يوم الاثنين الماضي بين التاسعة والعاشرة. يبدو أن السيدة باركلي كانت تشغل نفسها كثيرًا مع مؤسّسة جمعية القديس جورج (ومقرّها في شارع وات)، وهي مؤسسة خيرية تُعنى بتزويد الفقراء بالملابس المستعملة. وفي ذلك المساء عقدت الجمعية اجتماعًا في الساعة الثامنة، فعجّلت السيدة باركلي عشاءها حتى تحضر الاجتماع، ولدى مغادرتها المنزل سمعها السائق تبدي بعض الملاحظات العاديّة لزوجها وتؤكد له أنها لن تتأخر. ثم مرّت بالآنسة موريسون (وهي شابة تعيش في الدّارَة المجاورة) واتجهت الاثنتان إلى اجتماعهما معًا. استمرّ الاجتماع لمدة أربعين دقيقة، وفي الساعة التاسعة والربع عادت السيدة باركلي إلى المنزل بعد أن أوصلت الآنسة موريسون إلى بيتها في الطريق.

في «لاشين» غرفة تُستخدم كغرفة استقبال، وهي تواجه الطريق وفيها باب زجاجيّ واسع يؤدي إلى المرج العشبي الذي يبلغ عرضه ثلاثين مترًا ويفصله عن الطريق سورٌ منخفض. وقد دخلت السيدة

باركلي هذه الغرفة عند عودتها، حيث كانت الستائر مغلقة لأن الغرفة نادرًا ما تُستخدم في المساء. قامت السيدة باركلي بنفسها بإشعال المصباح، ثم دقّت الجرس وطلبت من الخادمة جين ستيوارت أن تُحضِر لها- على غير عادتها- كوبًا من الشاي. كان الكولونيل يجلس في غرفة الطعام، ولكنه حين سمع أن زوجته عادت انضمّ إليها في غرفة الاستقبال، وقد رآه السائق يعبر البهو ثم يدخل إلى هناك، وبعدها لم يرَه أحد على قيد الحياة!

أحضرت الخادمة الشاي المطلوب بعد عشر دقائق، ولكنها فوجئت بسماع صوتَي سيدها وسيدتها في مشاجرة غاضبة، فدقّت على الباب، ولما لم تتلقَّ أي إجابة حاولت فتح الباب فاكتشفت أنه مغلَق من الداخل. وبطبيعة الحال جرَت إلى الدور السفلي لتخبر الطبّاخة، فصعدت المرأتان ومعهما السائق إلى البهو ليستمعوا إلى الخلاف الذي كان لا يزال محتدمًا. وقد اتفقوا جميعًا على أنهم لم يسمعوا إلا صوتين فقط: صوت باركلي وصوت زوجته، وقد كانت تعليقات باركلي خافتة متقطعة بحيث لم يستطع أحدٌ من الخدم سماعها، أما ملاحظات السيدة فكانت مليئة بالمرارة، وحين رفعت صوتها استطاعوا سماعها بوضوح وهي تكرّر

المرة تلو الأخرى قائلة: أيها الجبان... ما الذي يمكن فعله الآن؟... أعِد لي حياتي... لن أتحمّل العيش معك بعد اليوم أيها الجبان، أيها الجبان!

هذه نبذة من محادثتهما التي انتهت بصرخة مفاجئة فظيعة أطلقها الرجل مصحوبة بصوت ارتطام وصرخة حادّة من السيدة؛ فاقتنع السائق بأن مأساة قد وقعت، فأسرع إلى الباب وجاهد كي يخلعه والصرخات تتوالى من داخل الغرفة، ولكنه لم يتمكن من اقتحام الباب على أية حال، وشلّ الخوفُ تفكيرَ الخادمتين فلم تستطيعا مساعدته. ثم خطرت له فكرة مفاجئة، فجرى عبر باب البهو والتفّ حتى وصل إلى المرج العشبي الذي تُفتح عليه النوافذ الزجاجية الطويلة. وكان أحد جوانب النافذة مفتوحًا، وهو الأمر الذي كان- حسبما فهمت- معتادًا في الصيف، فدخل إلى الغرفة بلا صعوبة.

كانت سيدته قد توقفت عن الصراخ عندئذ وارتمت فاقدة الوعي على الأريكة، فيما رقد الكولونيل ميتًا وقد تدفق الدم من جرح في رأسه، وكانت ساقاه مائلتين على جانب أحد المقاعد ذات الذراعين ورأسه في الأرض قرب زاوية إطار المدفأة.

كانت الفكرة الأولى التي خطرت على بال السائق بطبيعة الحال هي

أن يفتح الباب، وذلك بعد أن وجد أنه لن يستطيع مساعدة سيده بشيء. وهنا واجهته صعوبة غريبة وغير متوقَّعة، فلم يكن المفتاح في الجانب الداخلي من الباب ولم يستطع العثور عليه في أي مكان في الغرفة، فخرج ثانية عبر النافذة. ثم عاد بعد أن حصل على مساعدة شرطيّ وطبيب، فقاموا جميعًا بنقل السيدة (التي تحوم حولها أقوى الشكوك) إلى غرفتها وهي ما تزال في غيبوبة، ثم وضعوا جثمان الكولونيل على الأريكة، وبعد ذلك قاموا بفحص موقع المأساة بكل عناية.

عانى المحارب القديم من جرح قطعيّ في الجزء الخلفي من رأسه طوله بوصتان، وكان سببه على ما يبدو- ضربة عنيفة بسلاح غير حادّ، ولم يكن من الصعب معرفة طبيعة السلاح المستخدَم، فبالقرب من الجثة على الأرض وجدوا هراوة من الخشب المنحوت ذات مقبض عظمي. وبما أن الكولونيل يمتلك مجموعة مختلفة من الأسلحة التي أحضرها من مختلف البلدان التي حارب فيها فالشرطة يعتقدون أن هذه الهراوة هي واحدة من مجموعة تذكاراته، بالرغم من إنكار الخدم رؤيتهم لها من قبل، ولكن هذا الإنكار غير مهم لأن المنزل حافل بالعديد من التحف، فمن الممكن أن يكونوا قد سهوا عن هذه القطعة

بالذات. أما عن مفتاح الغرفة فلم يعثروا عليه، لا مع السيدة باركلي ولا مع القتيل ولا حتى في أي مكان آخر من الغرفة، وهو أمر غير قابل للتفسير. ولم يكتشف الشرطة شيئًا آخر ذا أهمية في الغرفة، وقد فُتح الباب في النهاية بواسطة صانع أقفال.

كانت تلك هي الأحوال يا واطسون عندما ذهبت إلى ألدرشوت صباح الثلاثاء بناء على طلب الميجور ميرفي دعمًا لجهود الشرطة. وأحسب أنك ستُقرّ بأن المشكلة مثيرة للاهتمام بالفعل، فقد بيّنَت لي. ملاحظاتي كم هي قضية غير عادية في الحقيقة، بل هي أكثر غرابة وصعوبة مما تبدو للوهلة الأولى.

قبل فحص الغرفة استجوبت الخدم، ولكني لم أتمكن من انتزاع حقائق غير تلك التي سبق وذكرتها لك، وإن كانت الخادمة جين ستيوارت قد تذكّرت أمرًا آخر مهمًا؛ فهي تتذكر أنها ذهبت حين سمعت أصوات النزاع ثم رجعت ومعها باقي الخدم، إلا أنها عادت وذكرت أنها حين كانت وحدها كان صوتا سيدها وسيدتها منخفضين جدًا بحيث لم تتمكن من سماع أي كلمات محددة، وأنها استنتجت أنهما كانا يتشاجران اعتمادًا على نبرتهما وليس بسبب كلماتهما.

أمر واحد في القضية ترك أعمق الأثر في نفوس الخدم والشرطة، وهو مقدار الألم المرتسم على وجه الكولونيل، فقد انطبع على وجهه- طبقًا لروايتهم- أقصى ما يمكن للملامح البشرية أن تحمله من تعابير الخوف والرعب، وكان تأثير ذلك رهيبًا حتى إن بعض الخادمات قد فقدنَ الوعي لمجرّد رؤيته! فلعله قد اطّلع على قدَره فسبّب له ذلك أقصى درجات الرعب، وقد كان هذا الافتراض ملائمًا لنظرية الشرطة التي تقول إن الكولونيل قد رأى زوجته وهي تهجم عليه هجومًا مميتًا. حتى الجرح الظاهر في مؤخّرة رأسه لا يمثل اعتراضًا قويًا على نظرية الشرطة هذه، فربما كان القتيل قد استدار ليتفادى ضربة وُجِّهت إليه. أما السيدة نفسها فلم يمكن الحصول على أية معلومات منها لأنها فقدت رشدها مؤقّتًا بتأثير نوبة شديدة من حمّى الدماغ.

وقد عرفتُ من الشرطة أن الآنسة موريسون (التي خرجت مع السيدة باركلي في ذلك المساء) قد أنكرت معرفتها بالسبب الذي ربما أدّى إلى الحالة المزاجية السيئة التي عادت بها مرافقتها.

جلست أدخّن غليوني وأفكر في كل هذه الحقائق التي جمعتها محاولًا فصل الحقائق الحماسة عن تلك التي وقعت بالمصادفة، ولم يكن

لديّ شك في أن اختفاء مفتاح الباب هو من أكثر حقائق القضية تميّزًا وإيحاء، فلا بد أن شخصًا ما قد أخذه، ولم يكن الكولونيل ولا زوجته قادرَين على ذلك، هذا واضح بما فيه الكفاية، ولذا فلا بدّ أن شخصًا ثالثًا قد دخل الغرفة، وهذا الشخص الثالث لم يكن قادرًا على الدخول إلا من خلال النافذة، ولذلك فقد تصورت أن فحصًا دقيقًا للغرفة وللمرج العشبي قد يكشف بعض آثار هذا الشخص الغامض.

لم أترك أيًا من أساليبي التي تعرفها- يا واطسون- إلا وطبّقته على هذا التحقيق، حتى تمكنت من الحصول على ما توقعته؛ فقد كان في الغرفة رجل جاء من الطريق وعبر المرج العشبي إلى الغرفة! كما حصلت على خمس علامات واضحة جدًا؛ كانت واحدة منها على الطريق الرئيسي نفسه في المكان الذي تسلّق فيه ذلك الشخص السورَ المنخفض، واثنتان على المرج العشبي، واثنتان باهتتان جدًا على اللوح الملطَّخ قرب النافذة حيث دخل، ويبدو أنه أسرع الخطى عبر العشب حيث كانت علامات أصابع قدميه أعمقَ كثيرًا من علامات كعبيه. ولكن لم يكن الرجل هو من أثار دهشتي، بل مُرافِقه.

قلت بدهشة: مُرافقه؟!

سحب هولمز قطعة من الورق العريض من جيبه ثم بسطها بعناية على ركبتيه وسألني قائلًا: ما الذي تستنتجه من هذا؟

كانت الورقة ممتلئة برسومات لآثار أقدام أحد الحيوانات الصغيرة، فقد كانت فيها خمس علامات واضحة لباطن قدم الحيوان ودليل على وجود مخالب، والأثر كله يكاد يكون في حجم معلقة الحلوى!

قلت: إنه كلب.

- هل سمعت يومًا عن كلب يجري على الستائر؟

- قرد إذن؟

- ولكنها ليست طبعة لقدم قرد.

- ماذا يمكن أن يكون إذن؟!

- ليست لكلب ولا لقط أو قرد وليست لأي حيوان نعرفه، وقد حاولت إعادة تشكيله مستعينًا بالمقاييس، فهنا أربع طبعات حين كان الحيوان واقفًا بغير حراك، وأنت ترى أن بين الأقدام الأمامية والخلفية نحو أربعين سنتمترًا، فإذا أضفنا إلى لك طول العنق والرأس فسوف نحصل على مخلوق لا يقلّ طوله عن ستين سنتمترًا، ومن المحتمَل أن

يزيد على ذلك إذا كان له ذيل. ولكن لاحظ معي الآن هذه المقاييس الأخرى، فعندما كان الحيوان يتحرك حصلنا على طول خطواته التي لا تكاد تتجاوز الواحدةُ منها طولَ الإصبع، وهذا يعطيك دلالة على أنه حيوان ذو جسم طويل وسيقان قصيرة جدًا، ولم يكن من اللطف بحيث يترك خلفه أيًا من شعره، ولكن شكله العام لابدّ أن يكون مثلما أشرت، كما يمكنه السير على الستارة، وهو من الحيوانات اللاحمة.

– كيف استطعت استنتاج ذلك؟

– لأنه جرى أعلى الستارة، ففي النافذة قفص معلَّق لعصفور كناري، ويبدو أن هدفه كان الوصول إلى الطائر.

– فماذا كان هذا الوحش إذن؟

– آه لو استطعت معرفته! فربما ساعدني ذلك على حل القضية. على العموم من المحتمَل أن يكون حيوانًا من فصيلة ابن عرس، بالرغم من أنه أضخم من أيّ واحد رأيته منها.

– ولكن ما علاقته بالجريمة؟

– هذا ما يزال غامضًا أيضًا. ولكننا عرفنا الكثير كما تلاحظ، فقد

عرفنا أن رجلًا ما وقف ليراقب الشجار بين الزوجين لأن الستائر كانت مرفوعة ونور الغرفة مضاء، كما نعرف أيضًا أنه قد جرى عبر المرج العشبي ثم دخل إلى الغرفة مصطحبًا معه حيوانًا غريبًا. ولعل هذا الرجل الغريب ضرب الكولونيل، ومن الممكن أيضًا أن يكون الكولونيل قد ارتعب بسبب رؤيته فسقط فجُرح رأسه على زاوية إطار المدفأة. وأخيرًا لدينا حقيقة محيّرة، هي أن الدخيل قد أخذ المفتاح معه عندما غادر المكان!

قلت: لقد زادت اكتشافاتُك الأمرَ غرابة أكثر من ذي قبل!

– تمامًا؛ لقد أظهرَت أن في الأمر شيئًا أعمق ممّا استنتجناه في البداية. وقد فكرت مليًّا فوصلت إلى قرار بأنني يجب أن أتعامل مع القضية من زاوية أخرى.

ثم نظر إليّ بشفقة وقال: ولكن يبدو– يا واطسون– أنني أبقيك مستيقظًا بغير داعٍ في حين أنني أستطيع إخبارك بكل هذا ونحن في طريقنا إلى ألدرشوت غدًا.

– شكرًا لك، لقد أخبرتني الكثير بالفعل ولا يمكنك التوقف الآن.

قال هولمز: من المؤكّد أن السيدة باركلي كانت على علاقة حسنة

بزوجها حين غادرت المنزل في الساعة السابعة والنصف، وهي لم تكن ممّن يُظهرون عواطفهم كما أخبرتك، ولكن السائق سمعها وهي تثرثر مع الكولونيل بطريقة ودّية. ومن المؤكد أيضًا أنها ذهبت بعد عودتها مباشرة إلى تلك الغرفة لكي تتجنب مقابلة زوجها، ولجأت إلى الشاي كما قد تفعل أي امرأة ثائرة. وأخيرًا حين جاء هو إليها انفجرت وهي تكيل له اتهامات عنيفة؛ ولذلك فلا بدّ أن شيئًا ما قد حدث بين الساعة السابعة والنصف والساعة التاسعة ليغيّر شعورها نحوه، وبما أن الآنسة موريسون كانت معها طوال تلك المدة فهي تعرف شيئًا عن الأمر بالتأكيد، بالرغم من إنكارها.

كان حدسي الأول هو أن بين هذه السيدة الشابة والكولونيل علاقة عاطفية، وأنها ربما اعترفت لزوجته بهذه العلاقة حين تصاحبا في ذلك المساء، وهذا من شأنه أن يبرّر عودتها غاضبة، وهو يبرّر أيضًا إنكارَ الفتاة حدوث أي شيء، وهو افتراض لن يتعارض مع معظم الكلمات التي سمعها الخدم. ولكن- في المقابل- فإن من المعروف عن الكولونيل أنه يحب زوجته، بالإضافة إلى ضرورة أن نأخذ في الاعتبار الاقتحام المأساوي للرجل الآخر، وربما لم يكن لهذا الاقتحام أي علاقة

بما حدث قبل ذلك.

ليس من السهل دائمًا تتبّع خطوات شخص ما، ولكنني إجمالًا كنت أميل إلى طرد فكرة أن بين الكولونيل والآنسة موريسون علاقة ما، وفي الوقت نفسه كنت قد اقتنعت أكثر من أي وقت مضى بأن هذه السيدة الصغيرة تحمل مفتاح حل اللغز في تحوُّل شعور السيدة باركلي إلى كراهية زوجها، ولذلك اتبعت المسار الواضح وقمت بزيارة الآنسة موريسون وشرحت لها أنها تملك الحقائق بين يديها، وأكّدت لها أن صديقتها السيدة باركلي قد تجد نفسها في السجن متّهَمة بجريمة كبرى ما لم تتضح هذه الأمور.

الآنسة موريسون فتاة نحيلة صغيرة بالغة الرقّة لها عينان خجولتان وشعر أشقر، ولكنني وجدتها لا تفتقر إلى الذكاء والتفكير السليم، فقد جلسَت تفكر لبعض الوقت في الكلام الذي قلته، ثم التفتت نحوي بعزم وقالت كلامًا طيبًا سألخّصه لك؛ قالت: لقد وعدت صديقتي أنني لن أقول شيئًا عن هذا الأمر، والوعد هو الوعد، لكنني أجد من واجبي مساعدتها إذ قد وُجِّهت إليها مثل هذه التهمة الخطيرة، لا سيما وأن عزيزتي المسكينة لا تستطيع الدفاع عن نفسها الآن بسبب المرض. أحسب إذن

أنني في حِلّ من وعدي، وسأخبرك بما حدث مساء يوم الإثنين بالتفصيل.

حدث ذلك حين كنا في طريق العودة من اجتماع الجمعية في نحو الساعة التاسعة إلا الربع، وكان لا بد لنا من أن نمرّ في طريقنا بشارع هدسون، حيث كانت حركة المرور هادئة جدًا وليس ثمّة إلّا مصباح واحد في الناحية اليسرى، وعندما اقتربنا من المصباح رأيت رجلًا يمشي باتجاهنا وظهره محني جدًا، وكان يعلّق على أحد كتفيه شيئًا يشبه الصندوق، وبدا عليه أنه مشوَّه إذ كان يمشي ورأسه محني وركبتاه مقوَّستان. وقد كدنا نتجاوزه حين رفع وجهه لينظر إلينا في دائرة ضوء المصباح، وحين فعل ذلك توقف وصرخ بصوت رهيب قائلًا: يا إلهي، إنها نانسي!

فشحب وجه السيدة باركلي شحوب الموتى وكادت تسقط، لولا أن الرجل ذا الشكل المفزع سارع إلى الإمساك بها، وكنت أنا على وشك أن أطلب الشرطة، إلا أنها فاجأتني وتكلمت مع الرجل بطريقة مهذّبة! قالت له بصوت مرتعش: لقد اعتقدت أنك ميت طوال ثلاثين عامًا يا هنري.

قال: وهكذا كنت.

كان الاستماع إلى نبرات صوت الرجل وهو يردّد هذا الكلام مريعًا، وكان وجهه مخيفًا شديد الاسمرار وفي عينيه لمعة غريبة لا تزال

تطاردني في أحلامي حتى الآن، وقد غزا الشيبُ شعره وشاربيَه، وبدا وجهه مجعَّدًا متغضنًا كالتفاحة الذابلة!

قالت السيدة باركلي: امشي مسافة قصيرة يا عزيزتي، فأنا أرغب في محادثة هذا الرجل على انفراد، ولا تخافي من شيء.

كانت تحاول قدر جهدها أن تتحدث بوضوح، ولكنها كانت ما تزال شاحبة جدًا وتُخرِج الكلمات بصعوبة من شفتيها المرتعشتين.

فعلتُ ما طلبَته مني، وتحدّثا معًا لبعض الوقت، ثم جاءت إلى آخر الشارع وعيناها تبرقان، ورأيت الرجل العاجز البائس يقف بجوار عمود المصباح ويهزّ قبضته في الهواء وقد تمكن منه الغضب، ولم تنطق هي بكلمة حتى وصلنا إلى الباب، وعندها أمسكَت بيدي وتوسلَت إليّ أن لا أخبر أي شخص بما حدث. قالت: إنه أحد أصدقائي القدامى، ولكن أحواله تدهورت.

وعندما وعدتها بأنني لن أقول شيئًا قبّلتني، ولم أرَها منذ ذلك الوقت. لقد أخبرتُك الآن- يا سيد هولمز- كل الحقيقة التي كتمتها عن الشرطة لأنني لم أدرك وقتها مدى الخطر الذي يتربص بصديقتي، وأنا الآن أدرك أن من مصلحتها أن تُعرَف الحقيقة.

كانت تلك هي تصريحاتها يا واطسون، وكانت بالنسبة إليّ- كما ترى- مثل النور في ليلة مظلمة، فكل ما كان غيرَ مترابط من قبل بدأ يتخذ مكانه الحقيقي في الحال، وتكوّن عندي إحساس داخليّ مبهَم بتتابع الأحداث، وكان من الواضح أن خطوتي التالية هي العثور على الرجل الذي ترك هذا التأثير الهائل في السيدة باركلي. لو أنه كان ما يزال في ألدرشوت فلن يكون العثور عليه بالغ الصعوبة، إذ لا يوجَد في المنطقة عدد كبير من المدنيين، ولا بدّ لرجل مشوَّه مثله أن يلفت الانتباه.

أمضت يومًا في البحث، وبحلول المساء، هذا المساء بالذات يا واطسون، استطعت أن أتتبع أثره. اسم الرجل هو هنري وود، وهو يسكن في إحدى الغرف في نفس الشارع الذي قابل فيه السيدتين، وقد جاء إلى المنطقة منذ خمسة أيام فقط.

فقمت بانتحال شخصية وكيل تسجيلات وحظيت بمحادثة من أكثر المحادثات تشويقًا مع مالكة المنزل، ومنها عرفت أن الرجل يعمل ساحرًا وممثّلًا يدور على الملاهي المخصَّصة للجنود بعد حلول الظلام ليؤدّي فيها فقرات ترفيهية، وهو يحمل معه في ذلك الصندوق حيوانًا يبدو أنه يسبّب الذعر الشديد لمالكة المنزل لأنها لم ترَ مثله من قبل،

ويستخدمه الرجل في القيام ببعض الحِيَل كما تقول. وقد أخبرتني صاحبة المنزل بالكثير عن حياة هذا الرجل، كما قالت أيضًا أنه من العجيب أن يعيش مثل ذلك المخلوق نظرًا إلى التشوّه الشديد الذي يعاني منه، وأنه يتكلم لغة غريبة في بعض الأحيان، كما أنها سمعته يتأوه وينوح في غرفته طوال الليلتين السابقتين. وبالرغم من أنه مستقيم في تعاملاته المادّية إلا أنه حين دفع مقدَّم أجر إقامته أعطاها ما بدا لها وكأنه جنيه مزيَّف، وقد عرضَته عليّ يا واطسون فوجدتُه روبية هندية!

وهكذا- يا صديقي العزيز- أصبحتَ تعرف ما هو الموقف ولماذا أريدك معي، فمن الواضح تمامًا أن الرجل قد تبع السيدتين بَعد ابتعادهما عنه، وأنه رأى الشجار بين الزوجين من خلال النافذة المفتوحة فاندفع إلى داخل الغرفة، وتحرّر المخلوق الذي يحمله معه في صندوقه فأحدث ما خبّرتك به من آثار. كل هذه الأمور حقائق مؤكّدة، ولكن هذا الرجل هو الشخص الوحيد الذي يستطيع إخبارنا بما حدث في تلك الغرفة بالضبط.

- وهل تنوي أن تسأله؟

- بكل تأكيد، ولكن بوجود شاهد.

- وهل أنا هذا الشاهد؟

- إذا تكرّمت، فإن أوضح لنا الأمر فهذا حسن، وإذا لفض فلن يكون أمامنا سوى إبلاغ الشرطة للقبض عليه.

- ولكن كيف تعرف أنه سيكون هناك عندما نعود؟

- يجب أن تتأكد من أنني قد اتخذت بعض الاحتياطات، فأحد فتياني يقف حارسًا عليه، وسوف يلازمه كظلّه ويذهب معه أينما ذهب. أنا متأكد أننا سنجده في شارع هدسون غدًا يا واطسون، وحتى ذلك الوقت سأكون أنا المجرم إذا أبقيتك خارج فراشك أكثر من ذلك.

كنا في منتصف النهار حين وصلنا إلى مسرح المأساة في اليوم التالي، فاتجه رفيقي إلى شارع هدسون في الحال. وبالرغم من قدرة هولمز على إخفاء مشاعره إلا أنني لاحظت- بكل وضوح- حالة الانفعال المكبوت التي سيطرت عليه، في حين شعرت أنا بمتعة تدغدغ حواسّي كلها، وهي تنتابني دائمًا عندما أشترك مع هولمز في مطارداته.

قال ونحن ننعطف لندخل في طريق قصير على جانبَيه منازل بسيطة ذات طابقين: هذا هو الشارع، آه، وها هو سمبسون ليخبرنا بالتقرير.

صاح فتى صغير وهو يجري نحونا: إنه في الداخل يا سيد هولمز.

قال هولمز وهو يربّت على رأسه: أحسنت يا سمبسون. هيا بنا يا واطسون، ها هو المنزل.

بعث هولمز ببطاقة تعريفه ومعها رسالة تقول إنه جاء في أمر مهم، وبعد دقيقة قابلنا الرجل الذي جئنا من أجله. وبالرغم من الطقس الدافئ كان الرجل ينحني على النار وكانت الغرفة الصغيرة حارّة كالفرن، وقد جلس محنيًّا متكوّمًا في مقعده بطريقة تعطي انطباعًا بالتشوّه لا يمكن وصفه، أما وجهه الذي أداره ناحيتنا فقد بدا مرهَقًا متكدرًا، ولكنه كان وجهًا ينطق بأنه كان متميّزًا بالوسامة في يوم من الأيام.

نظر الرجل إلينا نظرة صفراء بعينين متشائمتين، ودون أن يقف أو يتكلم أشار إلى مقعدين.

قال هولمز بلطف: أنت السيد هنري وود، وقد جئتَ مؤخَّرًا من الهند كما أعتقد. لقد جئتُ إليك بخصوص هذا الأمر البسيط المتعلق بمقتل الكولونيل باركلي.

– وما الذي يجب أن أعرفه عن هذا الأمر؟

– هذا ما أودّ التأكد منه، وأنت تعرف– على ما أظن– أن الاحتمال أكيد بأن تُحاكَم السيدة باركلي بتهمة القتل ما لم يتمّ توضيح الأمر، وهي صديقة قديمة لك.

انتفض الرجل بعنف وصاح قائلًا: أنا لا أعرف من أنت ولا أعرف كيف توصلت إلى ما تعرفه، ولكن هل تقسم على صدق ما تقوله؟

– بالطبع، إنهم ينتظرون فقط إلى أن يعود إليها رشدها ليقبضوا عليها.

– يا إلهي! هل أنت من الشرطة؟

– لا.

– ما علاقتك بالأمر إذن؟

– من واجب كل إنسان المساعدة في إقرار العدالة.

– أقسم لك إنها بريئة.

– هل أنت المذنب إذن؟

– لا، لست كذلك.

– من قتل الكولونيل جيمس باركلي إذن؟

– قتلَته المشيئة الإلهية العادلة. ولكن لتتذكر أنني لو ضربته على

رأسه فقتلته (كما تمنّيت أن أفعل) لكان ذلك أقل ما يستحقّه مني، ولو لم يقتله إحساسه بالذنب لكنت على الأرجح قد قتلته بنفسي. هل تريدني أن أقصّ عليك الحكاية؟ حسنًا، لا أدري لماذا لا أفعل ذلك، فليس لديّ ما أخجل منه.

ثم بدأ الرجل يقصّ قصّته فقال: هذا هو الأمر يا سيدي، فإن كنت تراني الآن وظهري يشبه ظهر الجمل وضلوعي كلها معْوَجّة فقد جاء وقت كان فيه العريف هنري وود من أوسم الرجال في السرية رقم ١١٧ مشاة، وكنا في معسكر في الهند في مكان سوف ندعوه بهورتي، وكان باركلي رقيبًا في نفس سريّتي، أما جميلة الكتيبة... آه، بل وأرقّ فتاة على وجه الأرض، فقد كانت هي نانسي ديفوي ابنة رقيب الشرف. وقد أحبّها رجلان، وأحبّت هي أحدهما، ولسوف تعجب حين تنظر إلى هذا الشيء المسكين أمامك منحنيًا فوق النار ثم تسمعني أخبرك أنها أحبّتني بسبب وسامتي!

حسنًا، بالرغم من أنني كنت قد ملكت قلبها إلا أن والدها قرّر أن يزوجها بباركلي لأنني كنت شابًا متهورًا طائشًا، أما هو فكان متعلمًا، وقد تَقلّد وسام الحرب بالفعل. ولكن الفتاة تمسّكت بي بإخلاص،

وبدا وكأنني سأظفر بها عندما اندلع التمرد في أنحاء الهند كلها.

حوصرنا في بهورتي، وقد ضمّت كتيبتُنا نصفَ سَرِيّة مدفعية وسريّة من السيخ وعددًا كبيرًا من المدنيين والنساء، ووقعنا جميعًا في الحصار حيث كان عشرة آلاف متمرد يحيطون بنا وهم في غاية الحماسة كمجموعة من الكلاب تحيط بقفص فأر. نفد الماء منا في الأسبوع الثاني من الحصار تقريبًا، وكانت فرصتنا الوحيدة هي الاتصال بجماعة الكولونيل نيل التي كانت تتجه إلى شمال البلاد، فلم يكن لنا أمل بالقتال وكسر الحصار ومعنا كل هؤلاء النساء والأطفال، ومن ثَمّ تطوعت للخروج وتنبيه الكولونيل نيل إلى الخطر الذي يحدق بنا.

وقد قُبل عرضي، وناقشت الأمر مع الرقيب باركلي الذي كان من المفترَض أنه يعرف الطريق أفضل من أي شخص آخر، فرسم لي المسار الذي قد يمكّنني من التسلل بين خطوط العدوّ الثائر. وفي الساعة العاشرة من نفس الليلة بدأت رحلتي. كان هناك ألف شخص لأنقذهم، ولكنني لم أفكر إلا في شخص واحد وأنا أتخطّى الحصار في تلك الليلة.

كان طريقي يسير أسفل مجرى ماء جافّ آملًا أن يحجبني عن

حرّاس العدو، ولكن عندما زحفت حول زاويته اصطدمت بستة منهم كانوا رابضين في الظلام بانتظاري! وفي لحظة تلقّيت ضربة أفقدتني الوعي، وقُيِّدت يداي وقدماي، ولكن الضربة الحقيقية كانت موجَّهة إلى قلبي لا إلى رأسي، فعندما أفقت وأنصتّ إلى ما يمكنني فهمه من كلامهم سمعت ما يكفي لأعرف أن زميلي (وهو نفس الشخص الذي خطّط لي الطريق الذي سأمشي فيه) قد خانني عن طريق خادم هندي لأسقط في أيدي العدو!

حسنًا، ليست بي حاجة الآن لأتوقف عند هذا الجزء، فأنتم تعرفون ما الذي يقدر جيمس باركلي على فعله. لقد فُكّ الحصار عن بهورتي في اليوم التالي، ولكن المتمردين أخذوني معهم وهم يتراجعون. ومرّت سنوات طويلة قبل أن أرى وجهًا أبيض مرة أخرى، فقد عُذّبت وحاولت الهرب فأمسكوا بي وعذّبوني ثانية، وتستطيع أن ترى بنفسك الحالة التي أوصلني ذلك كله إليها.

بعد ذلك فرّ بعض المتمردين إلى نيبال وأخذوني معهم، وحين بلغنا دترجيلِنْغ قتل أهل التلال هناك المتمردين الذين كنت معهم واحتفظوا بي عبدًا لهم، حتى هربت أخيرًا. ولكني اضطُررت إلى الاتجاه إلى

الشمال بدلًا من الجنوب، فمضيت حتى وجدت نفسي في أفغانستان، وهناك تجولت لسنوات عديدة، ثم عدت أخيرًا إلى البنجاب حيث عشت أغلب الوقت بين المواطنين وكسبت معيشتي عن طريق ممارسة الألعاب السحرية التي تعلمتها.

لم يكن في عودتي إلى إنكلترا فائدة وأنا عاجز تعِس، ولا فائدة من إظهار نفسي لزملائي القدامى هناك، حتى رغبتي في الانتقام لم تكن لتدفعني إلى ذلك، فقد فضّلت أن تعتقد نانسي ومعها أصدقائي القدامى أنني متّ وظهري مستقيم على أن يروني أعيش وأزحف وأنا ممسك بعصا مثل الشمبانزي. ولم يشك زملائي في موتي قط، وكنت قد سمعت أن باركلي تزوّج نانسي وأنه يرتقي في الكتيبة بسرعة، ولكن حتى ذلك لم يكن ليجعلني أتكلم.

لكن عندما يكبر المرء يزداد حنينه إلى وطنه، وقد مرّت عليّ أعوام طويلة وأنا أحلم بحقول إنكلترا الخضراء، فقرّرت أخيرًا أن أراها قبل أن أموت. وهكذا وفّرت ما يكفي لنفقات سفري، ثم جئت إلى هنا حيث يوجَد الجنود لأنني أعرف طرقهم وأعرف كيف أسلّيهم، وبذلك أكسب عيشي.

قال شيرلوك هولمز: حكايتك مثيرة للاهتمام، وقد سمعت بالفعل عن مقابلتك مع السيدة باركلي وتعرّف كل منكما على الآخر، وعندها- كما فهمت- تبعتَها إلى المنزل ورأيت مشاجرة بينها وبين زوجها من النافذة، حيث لا شكّ في أنها واجهته بما فعله معك، فغلبتك مشاعرك وجريت عبر المرج العشبي واقتحمت عليهما الغرفة.

- لقد فعلت يا سيدي، وما إن رآني حتى بدا شكله كما لم أرَ رجلًا من قبل، ثم سقط ورأسه باتجاه إطار المدفأة. ولكنه مات قبل أن يسقط؛ لقد رأيت الموت مرتسمًا على وجهه بكل وضوح، كانت مجرّد رؤيتي كرصاصة اخترقت قلبه المذنب.

- وبعد ذلك؟

- حينذاك فقدَت نانسي وعيها، فالتقطت من يدها مفتاح الباب وأنا أنوي فتحه وطلب المساعدة، ولكن حين هممت بذلك فكّرت أن من الأفضل أن أترك الأمر وأهرب لأن موقفي قد يبدو سيّئًا، وفي كل الأحوال سوف يُكتشَف سرّي إذا ما قُبض عليّ. ولأنني كنت مسرعًا فقد سهوت ووضعت المفتاح في جيبي، ثم التقطت عصاي وأنا أطارد تيدي الذي كان قد تعلق بالستارة، وحينها أدخلته إلى الصندوق الذي

خرج منه وأسرعت هاربًا.

سأله هولمز: مَن تيدي؟

انحنى الرجل فوق قفص كان في ركن الغرفة وفتح بابه، فخرج حيوان جميل لونه بنّي ضارب إلى الحمرة، وكان نحيفًا رشيقًا وله سيقان كسيقان ابن عرس وأنف طويل نحيل وعينان حمراوان من أرقّ الأعين التي رأيتها في رأس حيوان من قبل.

صحت: إنه نمس!

قال الرجل: حسنًا، البعض يطلقون عليه هذا الاسم، أما أنا فأدعوه صيّاد الثعابين، فتيدي هذا سريع جدًا مع الكوبرا، وعندي هنا واحدة منها منزوعة الأنياب، وتيدي يمسك بها كل ليلة ليسلّي الناس في العروض التي أقدّمها.

ثم التفت إلى هولمز وقال: هل من شيء آخر يا سيدي؟

- حسنًا، يمكن أن نطلبك ثانية إذا ثبت أن السيدة باركلي في مشكلة حقيقية.

– في تلك الحالة سأتقدم بالطبع.

– ولكن إن لم يحصل هذا فلا فائدة من إحياء هذه الفضيحة ضدّ رجل ميت. وبالرغم من تصرّفه المقيت فمن المريح لك– على الأقل– أن تعرف أن ضميره قد ظل يؤنّبه بمرارة طَوال ثلاثين عامًا بسبب فَعْلته الشريرة.

ثم نظر هولمز إلى الناحية الأخرى من الشارع وقال: ها هو الميجور مورفي. إلى اللقاء يا سيد وود، فأنا أريد معرفة ما إذا كان قد جدّ أي جديد منذ الأمس.

وصلنا في الوقت المناسب لنسبق الميجور مورفي قبل وصوله إلى الزاوية، وحين التقى بنا قال: هولمز، لعلك سمعت أن كل هذه الضجة قد انتهت إلى لا شيء؟ ماذا حدث؟

– لقد انتهى التحقيق الآن؛ وقد أثبت الفحص الطبي أن الموت كان نتيجة سكتة دماغية. لقد كانت قضية بسيطة بالرغم من كل شيء.

قال هولمز وهو يبتسم: أجل، لقد كانت سطحية جدًا. هيا يا واطسون؛ لا أظنّ أن لوجودنا في ألدرشوت ضرورة بعد الآن.